حميد الرقيمي

حنين مبعثر

(الطبعة الثالثة)
(2023 - 2022)

مطبوعات الواحة من إصدارات يسطرون

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

مدير التحرير

إبراهيم النحّاس

حنين مبعثر

حميد الرقيمي

الطبعة الثالثة

تصميم وإخراج: موسى إبراهيم

المقاس: ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع:: ١٥٣٣٨ / ٢٠٢٢

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 993 - 458 - 7

العنوان : ١٩٦ شارع الملك فيصل - محطة الطوابق - الجيزة

التليفون : ٠١١١٥٨٢٦٣٦٤

Email : Yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

أُمِّي..

ثلاثة أحرف، كأنَّ كل حرف تسبيحة مجنحة، هتاف صاعد إلى السماء، ترنيمة متبتلة، وجعٌ دام، عزف دامع، نزف مديد، وحنين مبعثر..

هذا أنا، أعود إليك من اللامكان، شجنًا ضارعًا أفتشُّ عني وعن عالم كوجهك وقلبك..

أودع كل هذا الشجن بين يديك كي لا ينفرط عِقد الأبجدية، فتقبليه خالصًا لقلبك الكريم.

ابنك: حميد.

"لقد ذهبوا إلى الجنة يا أمي.. لا تحزني، إنهم يتمشون الآن تحت أشجار مزهرة ويتحدثون مع الملائكة وقد نسوا عذاباتهم كلها".

(نيكوس كازانتزاكيس)

إليكِ فقط

أمي العزيزة:

أقف الآن في مواجهة قرار مصيري سيغيِّر كل ما يعتريني من حنين وشوق وعذابات هذا البعد المرير. سأكتب إليكِ وحدكِ، لن أخاطب أحدًا دونكِ ولن تكون هذه الرسائل إلا جسرًا يحملني إليكِ. مرت سنوات ثقيلة منذ آخر مرة كنت فيها مع نفسي، معكِ، والآن وحيد من كل شيء، تفصلني عنِّي وعنكِ تراكمات مثقلة بالآهات المنزوعة من أعماق القلب. تعرفين جيدًا من أنا، حميد الطفل المشاغب الذي أتعبك منذ لحظة خروجه إلى الحياة وحتى الآن، هل تغيرت بعد كل هذه التجارب، بعد كل هذه المراحل التي تجاوزتها وحدي وكنت فيها أحارب على الجهات الأربع كي لا أسقط؟ لا إجابات واضحة لكل هذه التساؤلات، ولكنني لا أزال أقاوم، أسير على أمواج من السواد والأشلاء والذكريات الجميلة.. هذا هو قدرنا يا عزيزتي، قدري وهذا الجيل الذي كُتبت عليه مواجهة الموت بالموت، على جبال المعارك المشتعلة وفي ضياع الصحارى الواسعة، على ضفاف البحار التي تلتهم الغرباء دون رحمة، وهذه المنافي التي لا تطيق خطواتنا عليها. هذا هو اليمني يا عزيزتي، هارب من الموت إلى الموت، يفر بجلده من لدغات الجوع إلى بلدان كئيبة، يهرب من ضجيج الموت المتصاعد حالمًا في الذهاب إلى أوروبا في هجرة غير شرعية؛ فيجد نفسه

وسط مخالب تجّار البشر، أو على مركب يحترق بمن فيه على بعد أميال من شواطئ البحار التي توهمه بالنجاة من الموت.

يحاصرنا الموت حتى ونحن نبحرُ على قارب السعادة العابرة، تتسرَّبُ حيواتنا كلَّ يوم من بين أيدينا، وهذا العمر الرَّاعف لا يعرف ضمادة أبدًا، وأنا جزء لا يتجزأ من هذا كله، أنا واحدٌ من جيل كامل يحترق في ريعان شبابه دون أن يتلمَّس طريقه الأولى إلى الحياة الحقيقية، لهذا سأكتب إليكِ الكثير. سأتوسم الشاب المسحوق بحلمه، والفقير بجوعه، والمذبوح بحريته، والمصلوب بكرامته، سأجسّد المنفي في عمره الطويل، والباحث عن حبال نجاته من وسط تهب عليه الرياح بالأنين العاصف والآهات المكبوتة؛ وستكونين أنتِ أم هؤلاء كلهم، ستكونين قِبلةَ حنينهم وشوقهم وبحرهم المتدفق بآلامهم وآمالهم.

ملامح وطن

أمي العزيزة:

أعود إليك من جديد، أتلمَّس عطفك وحنانك؛ فأبكي.. أتذكر صباحاتك الأولى التي تسبقين فيها شمس اللّه وأنت تجهدين نفسك من أجل إعداد يوم جميل لنا؛ فأبكي.. أشرد مع صوتك الفردوسي الذي تعانقه عصافير الطبيعة في لحظات صحوها الأولى؛ فأبكي.. تتراءى لي سواعدك التي كنت أراقب نشاطها وأنا منزوٍ على زاوية المائدة؛ فأبكي.. راحة يديك التي ظلّت تحمل نيران الطعام أمام لهفتنا وجوعنا وعطشنا؛ فأبكي.

ها أنا ذا وحيد، السماء تبدو لي كبحر أسود خالية من كل شيء، لا أعرف ماذا أفعل، من أحدّث وكيف أكتب إليك، يخيَّل إليَّ بأنني وسط مقبرة ساكنة في هذه البلاد التي تنعشني تارة وتخمدني طورًا. وجهك في قلبي، أقلّبه مع كل نبضة، أعتني بتقاسيمه حتى أعود إليه طفلًا هاربًا من ضياعه الأبدي، ليس هناك أخبار تستحق الكتابة الآن لكنني متعب جدًا، ترهقني التفاصيل الصغيرة التي دعست عليها وأنا في طريقي إلى هنا، تعذّبني تلك اللمحات التي اختزنتها في أعماق روحي وأنا أشاهد ملامح بلدي تهرب مني وأهرب منها.. كان عليَّ أن أحتضن في أحشائي الكثير من تراب مدينتي حتى أصير أقوى، لكنني اكتفيت بالقليل وعبرت على

جثث الذكريات كأنني لم أكن منها ولم تكن مني، الآن تغزوني من جديد، تباغتني في صمتي وسكوني وشرودي، وليس لديَّ ما أملكه من قوة تبقيني على الثبات إلا أنتِ، صوتك، دعاء قلبك، وأحلامٌ أحارب العالم كله من أجل أن تنمو معنا، ودونك ضياع وسراب وأوهام مؤذية.

رفاقي يبلغونك محبتهم وحنينهم أيضًا، لقد تحدثنا من جديد عنك، كنّا في هذا المساء على النيل نشاهد بلادًا مختلفة، أناسًا يضعون أتعابهم في منازلهم ومكاتبهم وأوراقهم ثم يخرجون إلى هذه الحياة كأطفال تغمرهم البهجة والسعادة، وبين ملامح وأخرى نتساءل بحزن: أين اليمني من هذا كله؟ كم تعذبنا هذه الأسئلة وترفس قلوبنا دون رحمة، أين اليمني النقي السعيد المبتهج الذي يستحق حياة أفضل؟ لا شيء يتوقف هنا، وكل واحد منّا له تساؤلاته، لكنَّا مجمعون على البحث عن ذلك اليمني الآخر، ولم نجد إلا الدماء والأشلاء والأطلال المتناثرة على من تبقى على قيد الحياة. لم أحدثك عن نوبات الصرع التي عشتها ونحن على نوافذ مطار القاهرة، لم تري هيئتي وأنا أقف أمام الموظف وفي يدي جواز منهك يحمل في طياته ثلاثين مليون يمني، كنت أتلّفت كلصٍّ خوفًا من الرفض، بينما في النوافذ الأخرى تقف حيوات أخرى غير خائفة، منتعشة بزيارة جديدة، دون ارتباك، وأنا ومعي كل اليمنيين نقف على جمرات هويتنا ونقبض عليها بأيادٍ مرتعشة. لم نكن السبب يا عزيزتي، لم

نخلق هذا كله بإراداتنا، لقد وقعنا في فخ الحرب، ذلك الفخ الذي نصبته أيادٍ خبيثة لا تدرك قيمة الأوطان، ولكن هذا ما حدث، من منفى إلى منفى نحمل نعش حياتنا على أبواب تخاف قدومنا ونخاف رفضها.

نحن بخير يا عزيزتي، فقط بكيت في هذا المساء وأنا أستحضرك كليًا، وليتني مع هذا أحتضنك من جديد.

منفى آخر

أمي العزيزة:

أكتب إليكِ الآن من بلاد أخرى، من منفى آخر، من غرفة تنكرُني وسرير يتأوه من ثقل حمولاتي، لا أعرف من أين أبدأ الحكاية الجديدة، لكنني سأتوقف قليلًا مع خطواتي الأولى.

وصلت إلى القاهرة قبل أيام، كانت لحظات السفر الجديدة متعبة جدًا، لحظات لا تخلو من الشرود الذي يأخذني إليكِ ويجعلني في حالة سكون عجيب.. وصلت المطار وكعادتي كنت أشعر بالخوف من الرفض، لا أقدر على التخلص من هذا الشعور، أقف على نافذة فحص الجوازات والقلق يعتريني، توجسات العودة خائبًا تجتاح كل مفاصل جسدي، خُيِّل إليَّ لحظتها بأن كل أعين اليمنيين تراقبني من بعيد، تتابع خطواتي وأنا أجر خلفي حقيبة تعبت مني.. أجد أعماقي مليئة بهذا الشعب العظيم ولا يمكن أن أقبل أية انتكاسة تطاله، تتسرب هذه النظرات من حدقات فؤادي وهي تتأمل أوراق الجواز المتلاصقة والمتراقصة على يد الموظف، فأجدك في الطرف الآخر تحملين حقيبتي وتقفين بشموخك المعتاد الذي يمدني بالقوة والاعتزاز وقيمة هذا الانتماء العظيم.

هذه المدينة يا عزيزتي لا تنام، لا يغفو لها جانب دون أن يخرج من سكونه الجانب الآخر، تعيش تناغمًا مستمرًا، ولا شيء قادرًا على إخماد حياتها المتدلية من سماء الله المرصَّعة

بالتاريخ الكبير، والمليئة بالحضارات الحقيقية. ينشغل الكل في خدمة الكل، يسابقون بعضهم على البقاء في هذا القيد المتواصل، كل شيء يسير في اتجاهه دون توقف، شوارع صاخبة، أزقة مزدحمة، أحياء مليئة بالمباني الطويلة المتعانقة، جسور تطل على بعضها برقصات المارة وأغانيهم، مقاهٍ تفوح منها رائحة التبغ والقهوة والست أم كلثوم، يتدفق النيل بين هذا كله بألوان صُنعت من جمال الإنسان وصارت على كل ناصية تشكّل اللوحات المدهشة. بلادٌ عجيبة يا أمي، تحمل في صدرها كل الحياة دون استثناء، كل الطقوس دون تمييز، مساجدُ قديمةٌ تملأها مباخر السلاطين والأمراء، ومثلها كنائسُ فارغةٌ بالصليب المشوق، ولا أحد يصرخ بخبث، لا أحد ينادي بالحق الرباني، لا أحد يحمل سلاحًا وعلى ملامحه يتجسد الخبث المتراكم بخبثٍ أشد.. وبين هذا كله أنا الضائع الحزين يا أمي، تبكي كل جوارحي حسرة على بلادي التي لم أعش الحياة فيها لحظة واحدة.. أبكي شبابًا هُدر، وذكريات طفولة لن تعاش، أبكي أعينًا غائرة في همومها المتصارعة، ومنازل فقدت من ضربات الحرب سكونها المريح، لا أشعر بالحياة هنا إلا ولمحت الموت في وجه بلادي، لا أُمسك الفرح على هذه الأزقة إلا وقبضني الوجع الممتد من أقصى بلادي إلى أقصاها، أجد الكثير من اليمنيين هنا، ولا يمكن أن تخفى ملامح بلادي في أعينهم دون أن أعانقها، تهرع روحي إلى مواساة هذا الجرح الطويل؛ فأجد الحمولات ثقيلة..

أجسادٌ هزيلة هشَّة، تارة مبتورة وأخرى منسية في جوعها الذي يقضمها دون رحمة، أعمارٌ لا تجد بوصلتها إلى الحياة، وأخرى تذهب بعيدًا في خيالاتها المستحيلة، حتى أولئك المترفون تئن قلوبهم من هذا البعاد الطويل يا عزيزتي.

هذه يا أمي نصف الحكاية، ربما أقل من ذلك وربما أكثر، ولكنني أيتها القريبة غارقٌ في هذا الحزن المتسيّد على كل خطواتي، غارقٌ في لحظات اليمني الأولى وهو ينفض عن ذاته غبار الخوف حتى يظهر أمام الآخرين بتأنقه المتجاسر على كل لحظة ألم؛ فنحن شعب المعجزات يا أمي، شعبٌ عظيم لا يشبه إلا نفسه، يألف كل شيء وتألفه كل الأشياء، شعب يعرف جيدًا طريقة خلوده في أعماق كل الشعوب، وهذا أيضًا ما ألمسه في أحاديث ومشاعر الغرباء.

اخترتكِ أنتِ في هذا الحديث الطويل، سردٌ متعبٌ جدًا يكسوه السواد من كل جانب، لكنني مثل شعبنا العظيم أعرف جيدًا كيف أستند على الأشياء العظيمة كقلبك.

ندوب.. ونصف حياة

أمي العزيزة:

كيف حالكِ؟ هذا أهم ما يمكن أن أضعه لكِ في هذه الرسالة وبقية الرسائل التي كتبتها وسأكتبها إليكِ، لا يشغلني سؤال أكثر من هذا السؤال الذي يلتصق دائمًا بحال بلادي وحالي وحال كل يمني. لا أزال أتسكع في شوارع القاهرة، وما زالت الأماكن تقابلني بنفس الهيئة الأولى، تتنكَّر لهذا الكائن المشبع بالحيرة، يكسوها الفضول لمعرفة ما يجول في خاطري، وأنا لا أملك إلا بلادي التي تنساب على أزقتها بأجساد ناقصة مليئة بندوب الحرب وتشوهاتها، لا يمر يومٌ دون أن أقابل يمنيًا دون عين، دون ساق، دون قدم، دون حياة، أجده يسير خائفًا وكأنه وسط حقل كبير من الألغام، مرعوبًا من فوبيا الطائرات والمدافع وأزيز الرصاص الذي اعتاد عليه في وسط ملتهب بالموت، هذا هو اليمني في القاهرة يا عزيزتي، اليمني الذي يحمل بقايا حياة من قلب مثقوب، وصدر مهشم، وجمجمة مكسورة، ولسان مرتعش، اليمني الذي يعاود غسيل أحشائه ويزاور- دون توقف- طبيبه المشفق على حالة مليئة بالبؤس واليأس والانكسارات الموغلة في أعماق الذات.. وأنا في عمق هذا كله لا أقدر على الهروب دون أن أشرع أبواب الحديث بيني وبينه، دون أضع قبلة على جبين ذلك ومواساة في قلب ذاك، وعناقًا طويلًا على صدر من فقد حدقاته وذراعه وبقايا بهجته.

أكتب لكِ هذا السواد كله، هروبًا وبحثًا عن المواساة، أبحثُ عن الضمير الذي يتسرَّبُ يومًا بعد آخر من تقاسيم أرواحنا، وهذا ما لا يمكن أن أساوم به أو أتخلى عنه، لن أحدثك عن العقارات اليمنية هنا، عن الجانب الآخر المنفصل عني وعنكِ، المنسلخ عن هذا الوجع الطويل؛ فهذا هروب مخجل يا عزيزتي، اعتراف بالهزيمة التي نعوّضها وهمًا بانتصارات مادية زائفة، ومع هذا كله لا يزال اليمن الكبير كبيرًا، لا تزال الأعين الراعفة تتغلَّب على نزيفها بابتسامة اليمني الصادقة التي يوزّعها على كل من يصادفه ويواسي بها شفقة العابر الغريب، والتي بها يكون عزيزًا قويًا وكريمًا منذ وجوده على صدر هذه الحياة وحتى الرمق الأخير.

أنا بخير يا حبيبتي، ربما أسير بنصف حياة هنا وفي كل مكان يحملني، لكنني بخير، أسرق من هؤلاء الكبار فُتاتًا للحياة والبقاء، أتوسم بهويتهم واعتزازهم بتضحياتهم العظيمة، شخصية اليمني الحقيقي الذي يعرف جيدًا طريق مجده ويسير إليه حتى على عكاز مبتور.

أتمنى أن أجدكِ دائمًا بخير، وكل اليمن الذي نعرفه ونحبه.

طفلكِ الكبير

أمي العزيزة:

أكتب إليك بعد قرون من الوجع والصمت والانكماش على أشياء فرضت عليَّ دون إرادة مني، لم أكن أتوقع بأنني سأكون على هذه الهيئة التي لو تعرت أمامكِ بحقيقتها لما صمدت روحك ثانية واحدة تجاه بشاعة السنوات والمسافات الرابضة في قلبي.

أعرفكِ تشتاقين بصمت، تعذبك هذه القرون المليئة بالدماء، والسنوات التي تسرَّب منها طفلك الضعيف والتائه، لكنني بفعل هذا كله صرت أقوى، صار لديَّ المناعة التي لا يمكن هزيمتها أو كسرها إلا حين تكونين أنتِ فيها نقطة ضعفي ومصدر هزائمي وانتصاراتي معًا. لم أجمع هذا النقيض إلا بكِ وبوطني العزيز؛ فمنذ غادرتك وأنا ألجأ مرتين إلى المنفى، منفى البلدان التي ملَّت خطواتي، ومنفى الأعين التي أبحث فيها عن ضحكتكِ، وهذا يغرس مرارة الأعوام في أعماقي، ويجعلني أهذي بالكثير، وأترنح بروحي وجسدي وذهني.

كيف حالكِ؟ يشغلني دائمًا هذا السؤال، ودائمًا ما أجده في الطرف الآخر يمد أعدائي بقوةٍ تفوق قواهم وعتادهم، لم ألتصق بامرأة حتى الآن، أفكر كثيرًا في هذا الأمر ولا أجد طائلًا من حدوثه، طالما هذه القرون التي عشتها وأعيشها في البعد عنكِ تمتد على قلبي وتسلبه طمأنينته وهدوءه.. يخيَّل إليَّ بأنكِ صرتِ أكثر ذبولًا ولم تعد تلك الملامح الناصعة البياض

مشرقة، كم يعذبني هذا الشرود يا أمي، كم تضعفني خطواتك المثقلة وهي تئن في قلبي ذهابًا وإيابًا يسكنها القلق والخوف والتوجسات والكثير من الشوق. لا أخفيك بأنني أخون هذا الاتصال، تخذلني عذاباتي كلما أخذتني المنغصات إلى التفكير بكِ، أتهرب باختلاق ما لا يمكن أن يصمد أمام سهرك الذي عهدتُه واحدًا من أطفالك وأقربائك، أشاهدك خاشعة في محراب دعواتك مرتعشة وساكنة، أسمع همسك للرحمن ومناجاتك التي لا نهاية لها، لم أنس قلقك فوق رأسي والحمى تتسلل إلى جسدي، وأنتِ تتمنين القصاص منها.. هذا كله لا يزال يؤرقني يا أمي، يُراكِم الجليد في أطرافي ويجعل لنبضات قلبي هزات مخيفة.

كبرت يا أمي، لم أعد ذلك الطفل الذي تهزمه فرقعات الحمى، لم تعد الأمراض تطرحني، أدرك أني لو كنت بجوارك لحظة احتراق جسدي لوقعت حتى لا أفقد لذة حرصك عليَّ وهمسك للرحمن من أجلي.

أمي العزيزة: أكتب إليك الآن تحت أشعة الشمس التي تلدغني بشدة، أستشعر ظلكِ، صوتكِ، حنانك، وأصبح أقوى. لم يعد هناك ما يدعوكِ للخوف والقلق، أنا بخير، لقد كبرت كثيرًا، نضجت بفعل هذه الأميال الجاثمة بيننا، لكن شوقي إليكِ يضعفني، يأكل عروقي التي تقاوم من أجلك، من أجل الوطن، سأعود قريبًا، ربما غدًا، ربما بعد عام، ربما في الفردوس، لكنكِ معي دائمًا وأبدًا، وفي هذا يكمن عزائي وآمالي العظيمة.

أطياف تشبهنا

أمي العزيزة:

أشعر بعطش قاتل، تتسرب الصحراء إلى روحي رمالًا ورياحًا وجِمالًا مليئة بالتعب، أسير كل يوم في دروب أجهل ملامحها، دروب مليئة بالحيرة والأرق والانفعالات التي تفقدني اتزاني، حيرة تأكل ملامح روحي التي نَمَت على حضنك وصارت اليوم في بقاع موغلة في الوجع.. وفي خضم هذا كله أتساءل: هل كان يجب أن يحدث هذا الألم المتوغل في الخاصرة اليمنية، هل كان علينا أن ندفع ثمنًا يحرمنا طفولتنا وشبابنا والعيش في بلادنا؟ ولا أجد إلا أصواتًا شاردة في البعد الطويل، تأوهات تحمل أشباحًا لا تشبهنا، لا صلة لها بالإنسان السوي، وما أفظع هذا الاغتراب، ما أشد عتمته على الروح والقلب معًا!!

مثلي، كان عليه أن ينمو قليلًا معك، أن يمتلئ بحنانك، ألَّا يكون هنا حيث يرفض المعنى المعنى الآخر، وتفر الأبجديات من كينونتها الحقيقية.. إلى متى مكتوب علينا هذا العطش، هذه الصحارى القاحلة والرمال التي تقف كالمنايا على حلوقنا، ونكاد في حدَّتها نفقد أصواتنا ومشاعرنا.

ليلة الأمس رأيتك في المنام، وهذه ليست المرة الأولى، لم تكن زيارتك الوحيدة التي أراكِ فيها تقفين على عتبات حلمي، كنتِ بهية ومتلألئة، عيناكِ صافيتان ووجهك ناصعٌ

كالثلج، يداك دافئتان، وقلبك ينبض برائحة الورد.. لم أقل شيئًا، وأنتِ أيضًا كنت ساكنة إلا من شعاع فردوسي يطلُّ من عينيك، وكلما حاولت كسر هذا الصمت الثقيل أجدك تضعين أصبعك النحيلة على فمي وبسمة من الجنة تطل من وجهك الأبيض، ودون صوت تضعين قبلة على رأسي، ودون كلمة تعودين كالضوء الشارد لأشيِّع بقايا حلم لم أنل منه سوى الصمت الطويل.

هل كان هذاء عزاء من الله، إشارة من السماء بأن هناك مطرًا قادمًا من سماء روحكِ المليئة بالحب، هل كان الربيع يا أمي، ربيع عمري الوحيد، منامًا وصمتًا وضوءًا من الجنة؟!

لا أجد تفسيرًا لهذا، لكنني أفتقدك بشدة وأحنُّ إلى مطر عمري وربيعه الخاشع في عينيك.

أمي: ما أفجعنا بالحنين بالشوق، واللقاءات المؤجلة، ما أثقلنا بتلك الأمسيات التي نسيناها على طرقات حلمنا ولم نعد نملك حق العودة إليها؛ ليس لذنبٍ اقترفناه، فقط لأننا عشنا الحلم لحظة يقظة عابرة تكوّمنا على تفاصيلها الغامضة دونما دراية منّا أو معرفة. طيفٌ يأتي وآخر يذهب، تحوّلت مضاجع الهزيع الأخير من تناهيدنا إلى مراسيم تشيِّع ذلك وتواسي ذاك، بينما نحن دون هوية أو تأشيرة عبور، نقف على قلوب من نحب كجثث هامدة لا تصلهم منها إلا رائحة المنافي المؤذية، وبقية التفاصيل لنا، الدمع لنا، الآه المفجوعة بغمد الذاكرة لنا، اللمحة الممزقة بفعل الشرود لنا، الماء المالح المتسرب من

أحداق قلوبنا لنا أيضًا، ولهم الروائح، لهم حق العودة إلى ماضينا باسمين، حق العبور إلى حاضرنا مشفقين، ولنا أيضًا أصوات الكلاب المجهولة، سكون الأحلام المهجورة، ضيق الأزقة المكشّرة التي تعاند حظك كلّما اتسعت خطاك، لنا الأنين الصامت، والصوت المسروق، وتلك البحَّات المصلوبة على حنينها الأول وبزوغها الأخير.

رائحةُ خوف

أمي العزيزة:

أكتب إليك من جديد ، وبحوزتي الكثير من الحكايات التي ترزح على قلبي وتبحث عن أيِّ ثقب للخروج منه. لم يتغير الحال يا عزيزتي، ما زلت أجرُّ خيباتي على شوارع هذه المدينة التي تقذفني من ذكرى إلى أخرى، تعصف بجسدي المتعب الذي يلاقي نسماتها الباردة بخشوع المتصوف الزاهد.

ليلة الأمس كنت مع بعض الأصدقاء، رتبنا لهذا اللقاء منذ لحظة وصولي؛ فأنا حريصٌ على ألَّا أعود إلى منفاي الآخر إلا وقد امتلأتُ بروائح اليمنيين.. لحظات هديرنا المتزاحم بالتفاصيل المؤلمة وصلنا اتصالٌ أكثر إيلامًا يخبرنا صاحبه بأن شابًا يمنيًا عُثر عليه مع زوجته في شقتهما دون وعي أو حركة أو نفس يدل على بقائهما في هذه الحياة التعيسة، ولم نكمل تساؤلاتنا إلا ونحن على رأس الشاب في شقته المليئة بالدماء والدموع والغربة.. مات اختناقًا وزوجته تواجه المصير نفسه على سرير العناية، كانت الجثة مغطّاة بالخوف، وكنت خائفًا يا أمي، صامتًا أراقب ملامح الآخرين وهم يسردون حكاية الشاب، قيل لنا إنه لم يمر يومان على وصوله من الولايات المتحدة الأمريكية من أجل أن يلتقي بزوجته، وهكذا كانت النهاية التي أدخلتنا في ذهول طويل.

أتدرين يا حبيبتي ما الذي يقتلنا بهذه الوحشية المفرطة، ما الذي يجعل دماء اليمني مسفوحة في كل بقاع الأرض؟ هي المنافي ولا غيرها، الاغتراب، الهجرة، الهروب من الموت إلى الموت.. لكِ أن تتخيلي هذه التفاصيل التي نصادفها كل يوم، نجد فيها اليمني يلملم جفافه بالدم والقهر والدموع التي تملأ عينيه، وماذا لنا من هذا كله، لنا الضياع والشرود، لنا السواد القاتم والظلام المستبد، لنا حلكة المنافي واختناقها المميت، لنا شفقة العابرين وتذمر الساخطين، لنا هذا القدر المثقل بكل الخيبات، ودون وطن يمنحنا قبرًا هادئًا على أقل تقدير.

مشيت كثيرًا في شوارع القاهرة، كنت أتخففُ من هذه الأثقال بالمشي والصمت والهروب من كل الأشياء حولي، لكنني لا أقدر يا أمي.. أعود إلى ذاتي الممزقة فأجد كل شيء حولي يتمثَّل اليمني المصاب بعشقه للأرض المسلوبة والوطن المنسي.. كانت الجثة الملقاة على صدر الموت تطاردني، تزيد من صخب الشوارع المزدحمة بالمارة، وكنت أترنح بهذا كله كعجوز سكران، أتمتم بالله وكل الأشياء الجميلة التي ألجأ إليها عند ضعفي وهواني.

وأنا في طريقي إلى نُزُلي، وجدت مقهىً مكتظًا بالغرباء، كان دخان التبغ يتصاعد من كل جهة، ومكبّرات الصوت تضج بأغانٍ شعبية مصرية.. جلستُ على أحد المقاعد وحيدًا، شربت قهوة ساخنة بالزنجبيل والقرفة ثم طلبت من صاحب

المقهى مقطعًا صغيرًا لأم كلثوم، كنت حينها أبحث عمَّا يأخذني بعيدًا عن ذهني وقلبي، عن ومضة تطير بي إلى عهد كلثوم ومحفوظ وبيرم التونسي، إلى مقاهي العقاد وطه حسين والحكيم توفيق وترانيم السنباطي، كنت في حاجة إلى عالم آخر لا يشبه هذا الذي يحيطني ولا ذلك الذي يجثم على قلبي وعقلي، وما هي سوى لحظات والرؤوس تتمايل أمامي منتشية كأنها في محراب ذلك الصوفي الزاهد الذي توسمته في صمتي وخوفي. كانت الكراسي الصفراء تهتز بهدوء تفتعله الأرواح القابعة عليها، وأنا أراقب مشدوهًا هذه التفاصيل التي كان يشد جمالها الآخذ نظرات صاحب المقهى وهو يقول: "مسلطن يا ابو يمن، رحم الله والديك"، هذه هي المرة الأولى التي أطلب فيها أغنية من غريبٍ تشغله عشرات الطلبات الأساسية.. كنت لا أعلم ما الذي عليَّ فعله، لا أعرف الطريق إلى النُّزل، كنت مجهولًا تمامًا حتى عن نفسي، وكانت اليمن تزحف بتراثها وتاريخها وعالمها المنسي على قلبي، كانت اليمن بجبالها وصخورها وبحارها تسير معي، كانت اليمن بجوعها وخوفها وفقرها وموتها تتسمَّر أمامي دون تمايلٍ أو تلاشٍ أو غروب، وكنتُ أبحث عنكِ، أبكي على قلبكِ، أتدثر بكِ دون سواك.

سوماني

أمي العزيزة:

ذات يوم صادفت سودانيًا نبيلًا، سألني: من أي بلاد أنت؟ قلت: من اليمن؛ فرد مبتسمًا: أن تكون يمنيًا وفي السودان فهذه من الأشياء العظيمة.

هل هناك محبة أكثر من هذه يا عزيزتي؟

الكثير من الحكايات زرعت في داخلي حب هذا المجتمع الأصيل، عشتها كأنني واحد من أبنائه، كرم سخاء، طيبة ونبل صادق، فضائل تشكّل إنسان هذه البلاد وتجعله في مقدمة الشعوب الأكثر جمالًا.

وصلت إلى السودان من جبهات القتال التي عملت على تغطية أحداثها والتي شكّلت شخصيتي بكل ما فيها من صلابة وهشاشة.. رأيت لحظتها الخرطوم فردوسًا هادئًا غير مشوهٍ بالحروب ولغة العنف. فقدت الكثير من أصدقائي في الجبهات، ولم يكن يمر أسبوع إلا وأنا أحمل عبراتي من جديد لنملأ قبورًا أخرى بأجسادٍ تأبى أرواحها أن تغادرنا. وجدت في الخرطوم ضالة الإنسان الطافح بالغيظ والهارب من ملامح الواقع الدامية، استقبلني في المطار أصدقاء أعزاء على قلبي، وكنت بين الحين والآخر التفت إليهم وأقول بصوتٍ متهدِّج: تأملوا السكينة كيف تسير في شوارع هذه المدينة رغم صخب مركباتها، كان هذا القول يخرج من فوهة الحرب

التي ظلت على أبواب قلبي مفتوحة بلهيبها وقذائفها.

ذات ليلة خرجت من مقهى جلست فيه مع بعض أصدقائي بعد فراق طويل ظلّت الحرب جاثمة بيننا حتى التقينا في قلب الخرطوم، وقفت على أطراف الشارع، لم أكن حينها إلا كقشة تصارعها الرياح دون أن تجد مرساها الهادئ، مرت ذكريات وتفاصيل وأشياء كثيرة أخرجتها من دهاليز الماضي تلك الجلسة الجميلة التي تبادلنا فيها حكايات عدة وسرحنا في سمائها نفتش عن ذواتنا المفقودة. كنت أتأمل المارة وبلادي تراقبني من خلف أعينهم، أردت معانقة كل سوداني يمر من جواري دون أن يقول شيئًا، دون أن يتذمر من مشردٍ اتخذ بلاده المتهالكة بجوعها وفقرها مسكنًا ووطنًا. مرت دقائق وأنا على هذه الحال حتى خرجت من كهف شرودي لأمدَّ يدي أمام مركبة حديدية صغيرة تستخدم في نقل الركّاب بين شوارع وأحياء الخرطوم وتسمى "ركشة"، وقف صاحبها، شابٌ في منتصف العشرينات، هكذا قدرت عمره من خلال ملامحه، بشرة سمراء داكنة، حليق الذقن، تحتل تقاسيم وجهه بعض الندوب التي تشعر وأنت تتأملها بأن صاحبها خاض معاركَ مع الزمن القاحل حتى صار بهذه الهيئة الصلبة والقوية، كنت أتوقع بأنه شديد المعاملة وصعب المراس، طلبت منه أن يأخذني إلى حيث أسكن، بالكاد فهم طلبي وأنا أحاول توضيحه باللهجة السودانية، وكان بين الحين والآخر يمسك على ضحكته حتى تكاد تخرج من عينيه، وربما حينها عرف بأنني

مستجدٌّ في بلاده.. ركبت وبعد دقائق سألني بهدوء عن الحياة في السودان ومتى وصلتها وتفاصيل أخرى دائمًا ما يسردها لنا السودانيون بلطفٍ صادق ونقي، أسعدتني هذه اللحظات وقلت في نفسي لا بد أن أتعرف على السودان أكثر عبر نافذة هذا الشاب اللطيف، ناديته بعد أن عرفت اسمه: ياسين أنا يمني، ولا شك بأن لليمنيين مكانة خاصة وعظيمة عندكم، قال نعم، ليس فقط اليمنيين بل كل الجنسيات، ولكنكم أقرب إلينا وهذا ما يميزكم عن البقية ويجعلنا نشعر بالألفة معكم دون حواجز أو مصاعب، وأخذ يشرح لي عن التاجر اليمني الذي كان يعطيه حلوى العيد بطيب خاطر، قلت له: يا عزيزي أنا جئت قبل يومين، في اليمن الحرب أكلت كل شيء ولم أجد بلادًا مفتوحة لنا دون تأشيرة أو فيزا إلا السودان، لا أملك هنا مسكنًا، حتى أنني الآن لا أمتلك قرشًا واحدًا أستطيع به دفع أجرتك، وأتمنى أن تعفو عني وتقدر حالتي إذا كان هذا ممكنًا.. كنت حينها متزنًا وأتحدث بجدية مع ياسين، وكان هو ذاهلًا يقود المركبة وعيناه مفتوحتان لا ترمشان أو تغمضان لحظة، شعرت وكأن كل جوارحه وقفت فجأة أمامي تُخرج من فمي الكلمة تلو الكلمة، والحرف تلو الحرف، ردَّ مواسيًا: "ولا يهمك"، لم يقل بعدها شيئًا سرحنا في صمت، ليس لأنني خيبت ظنه في أجرته التي يخرج ليلًا من أجلها متحملًا أتعاب السهر ومثقلات الحياة اليومية التي تعينه وأسرته على البقاء، لقد شعرت بأنني حينها أتحدث بلسان

كل مشرد في هذا العالم، وشعرت به أيضًا كما لو كان هو المسؤول الوحيد عن هذا البؤس الذي تقطّر من فمي باكيًا وحزينًا.. كسرت الصمت بطلبٍ آخر: "أنا أشعر بالجوع يا ياسين، هل تعشيت"؟ قال إن أمه وزوجته وإخوته ينتظرونه كل ليلة للعشاء، وقال لي بإمكاننا أن نروّح الآن ونتعشى في البيت، اعتذرت وطلبت منه أن نتعشى في مطعم على حسابه، رد بصوت شعرت به يخترق قلبي عطفًا وصدقًا: لا عليك نأخذ لك سفري من أقرب مطعم، وما هي إلا ثوانٍ ونحن على أبواب المطعم، أعطاني مبلغًا فنزلت مسرعًا وأخذت عشاء لي وله دون أن يعرف، رجعت إليه قلت له: الفلوس لم تكفني، أعطاني مبلغًا آخر، ونحن في الطريق تحدثنا كثيرًا، كان يبدو على صوته مزيج من السعادة والحزن، سألني عن طبيعة عملي قلت له لا شيء ولكنني مضطر أشتغل هنا حتى أستطيع توفير حاجاتي للبقاء على قيد الحياة، عرض عليَّ عرضًا اهتزت له كل جوارحي وهو يقول: "هذه الركشة تبعي وحدي، نشتغل فيها معًا، نتداول الصباح والمساء، أيضًا معنا غرفة في البيت تعيش معنا، ولا يهمك أعرّفك على شوارع الخرطوم، وإذا خائف من السواقة أعلّمك رايك شنو؟". كان كل حرف من حروفه يتوغل في قلبي، يفترش حدقات عيني، أجدني إنسانًا وأجد فيه الإنسانية كلها، وصرت مهمومًا كيف لي أن أصارحه بالحقيقة بعد هذا كله. لم أستطع الرد، اكتفيت بالصمت، لكنه على عكس ذلك، ظل يفرش لي فردوسه

الخاص كما لو كنت من رحم أمه وأهل ديرته.. سواعده كانت تقف على أبواب حريقي، يخمد الأولى ويحترق بدلًا عني في الأخرى، تحولتُ إلى دمعة كبيرة في قلبه، إلى ندبة نازفة في روحه، وهذا كله بقدر ما أسعدني جعلني أتوسل سهولة لحظة المصارحة.. قلت في نفسي: لقد اقترفت بغبائك يا حميد جرمًا إنسانيًا كبيرًا. لم يتوقف حتى وصلنا، نزل من على المركبة يسلِّم عليَّ ويودعني.. أعطاني رقمه ونبهني بحرصي على نفسي، قلت له أنا هنا مع شباب يمنيين، قال إذا تحب نروح البيت الآن ما في مشكلة، احتلني الصمت مرة أخرى.. عاد إلى مركبته وهو على وشك الرحيل، اقتربت منه وفمي يرتعش، أصابعي على جيبي بالكاد تقبض على ورقة المال، لم أجد أيَّ مخرج، بدأت معه من جديد أثني على السودان وأجلد نفسي بقوة على هذا الموقف، ولم أجدني إلا وأنا أقبل رأسه وأطلب منه العفو.. لم يفهمني حينها، ظن بأنني أشكره، أخرجت المال من جيبي وقلت له: ياسين كنت أمزح معك سامحني، وليتني لم أقلها، ليتني بقيت على حماقتي الأولى دون أن أراه يبكي ويجعلني على وقع دموعه أهذي بدموعي وصوتي. كان معاتبًا غاضبًا، شديد القسوة عليَّ، مرت دقائق ثقيلة تمنيت ساعتها لو تلتهمني الأرض، لم أكن أعرف ماذا أفعل وكيف أتصرف، قلت له هذا حساب مشوارك وهذا حساب العشاء الذي اشتريته لي ولك، قذفني بكل ما أعطيته وهمَّ بالذهاب، قبضت عليه مرة أخرى

وحاولت معه حتى تفهَّم موقفي وبالكاد قبل بأخذ الفلوس. رحل ياسين وبقيت أنا في الشارع، لا جالسًا ولا قائمًا، كنت بعيدًا عني، شعرت بنهر النيل يسري في عروقي وقلت: هذا موطنك أيها الإنسان، هنا تكمن رحمة البشرية وهنا تنمو عظمة الكرام.

مرت الأيام وكنّا على تواصل، نلتقي تارة على مائدة يمنية وأخرى على مائدة سودانية. ذات يوم وصلني اتصال منه في وقت متأخر من الليل، قال لي: زوجتي في المشفى للولادة، أريد منك مبلغًا بسيطًا وسأرده لك في أقصر وقت.. شعرت بسعادة البشرية كلها ترقص على قلبي، لبيته وأعطيته المبلغ، لم أفكر أبدًا إن كان صادقًا أو مخادعًا، بقيت على نشوة السعادة حتى جاءني بعد أسبوع، رأيت فيه فردوس السعادة، وكأنه في خلقٍ جديد، مبتسمًا متأنقًا سعيدًا، مركبته تضج بالموسيقى وسعادته بالكاد تحتويها الأرض، قال لي: الحمد لله جتني بنت وتمنيت لو كان ولدًا حتى أسميه حميد، شكرته وعانقته بصدق وفرحت له من أعماق قلبي، بعدها قال لي بصوت موسيقي عجيب: "يمان يا زول يمان"، لم يترك لي فرصة للاستفسار حتى قال أسميتُها يمان، رأيك شنو يا زول؟

وما حدث بعدها يفوق الوصف والسرد وكل قول.

لهذا أحب السودان كثيرًا يا عزيزتي، أجد فيها الإنسان الذي أحب والأرض التي تشبهني.

صباحات القرية

أمي العزيزة:

لا أخفيك بأن أكثر الأشياء التي تحزُّ في نفسي والتي كلما شممتُ رائحة الحياة البديعة وجدتها بعنادٍ أمام أنفي، هي الحسرة على سنوات عمري التي ضاعت في أزقة وشوارع المدن دون أن أعانق نسمات الريف وصباحاته المفعمة بالحب الكبير، هذا جانب من حياتي أخذته المدن بصخبها وزيفها وكل أشيائها المتداعية.. لا زال أمنّي النفس بسنوات قليلة أجد فيها نفسي أصافح إشراقات الريف الأولى وأسير مع نسماتها مرافقًا المزارعين والمكافحين النبلاء، لم أحظ بحياة كهذه، لم تدغدغ خدي حبات الندى وهي تتدلى من أغصان الشجر التي تظلّلُ غفوتي الفردوسية.. وأنا صغير حاولت كثيرًا إقناع أبي بهذا الأمر لكن الظروف كانت تحول دائمًا بيني وبين هذه الأمنية، كانت أجمل أوقاتي عندما يأتي أبي بخروف العيد، كنت أحتفل بشكل جنوني، أنسلخ عن فراشي صباحًا قبل أي كائن آخر في البيت ثم أذهب إلى مكان ضيفنا المدلل الذي كان يحظى برعاية خاصة ومكتملة مني، كما يفعل رجال الريف كنت أفعل أنا أيضًا، لكني لم أكن أجيد السيطرة عليه، كان يردينى برأسه تارة، وطورًا يقضي جميعنا اليوم كله في البحث عنه.. لم أكن أتوقف عن رعي هذا الخروف، فقط أيامًا معدودة كنت أخلق

فيها طقوسًا خاصة، أوقاتًا أبتدعها وحدي رغم كل الندوب التي تخلّفها أشواك الطرقات في جسدي وقدمي، تلك المساحة الكبيرة التي تحيط بمنزلنا كانت تشهد قبل قدوم العيد كل تفاصيل حياتي، أراقب من ناصية التبَّة الخروف وهو يدور حول نفسه بعد أن أوثقته بشجرة شائكة، أتأمل عينيه الواسعتين وهما تحومان باحثتين عن مخرج من هذا المأزق، وهذا كان يغيظني جدًا وأشعر بالحنق من نفسي، من ضعفي وعجزي، منكم جميعًا، لماذا لا أقدر على مسايرة هذا الكائن، ما الذي يجعلني أفشل دائمًا في مداعبة ومصاحبة من أجد الحياة بصحبته؟ أعود منكسرًا إلى البيت أجر خلفي ثقل هذا الخروف الذي أقضي كل يومي بالتفكير فيه، الليل يذهب بما سيكون عليه غدًا، يجب أن تأتي الألفة بيننا حتى لا يبقى الحال محصورًا بين الخوف والقلق. تمر الأيام المعدودة إلى أن تأتي أوقات النحر التي تشهد مذبحة روحي الطفولية وسط بهجة الجميع. كنت أهرب من تلك اللحظات، أنكمش فزِعًا من رؤية الرأس الذي سيصادفني عند أول حركة.. وهكذا مرت أيامي في المدينة، أعيش على أنفاس قليلة من هواء الريف الصافي، في طيات أيام معدودة أعيشها بقلق وخوف وتوجسات لا تكاد تتوقف.

والآن بعد كل هذه السنوات لا أزال أتحسر على أوقاتٍ كان يجب أن تلتصق فيها روحي وكل وجداني وجوارحي بالريف.. أتذكر المرات القليلة التي زرت قريتنا مع أبي، مرة

واحدة تسلقتها بقدمي وكان برفقتي أخي المرحوم صلاح، اعتليتها متجاوزًا السهول والوديان حتى وصلت إلى قمتها، حيث أفردت روحي منتشيًا وروائح المنازل تسابق بعضها من كل اتجاه، مررت على ينبوع خجول، قبلته حتى ارتويت لكني سرعان ما وجدتني أكثر عطشًا، تجولت مع الأمهات والفرحة تغمر تقاسيم ملامحهن الشاحبة، لا أزال أتذكر أول مرة ركبت فيها الحمار وذهبت مستعرضًا إلى الساقية من أجل جلب الماء، كنت أتمايل على وقع عنتريات الحمار حتى سقطتُ على رأسي، مخلفًا الكثير من الدماء والكثير من اللعنات والصيحات أيضًا.. رأيت الحمار يفر، والأطفال يضحكون، والنساء يستغثن بحيرة بين إنقاذ الحمار وإسعافي، كنت أدنو على دمي باكيًا والكل يحمل صخبه في فمه مهرولًا نحوي غاضبًا ومشفقًا، بكيت كثيرًا، تحسست بيدي المرتعشة بقعة رأسي النازفة، حقدت على الحمار كثيرًا، لكنّي أحببت الريف أكثر، أحببت ندبة رأسي التي لا تفارقني، كحسرتي أيضًا على كل هذا الضياع وهذا الغرق في عالمٍ لا يشبهنا البتة.

هنيئًا لكل من عاش ريفيًا ومات ريفيًا.

ملامحي هناك

أمي العزيزة:

أكتب إليك من مطار إسطنبول، أنا في طريقي إلى العاصمة التونسية للمشاركة في أحد المؤتمرات الإعلامية، يعيش الناس هنا في عالم مختلف، وأنا وحدي أصارع عوالمَ كثيرة، الرياح تصفعني وتذرُّ على ملامحي حبّات الغبار القادمة من أقصى بلادي. لم يكن هنا أحد إلا اليمن وأنا، تفاصيلُ جديدة أشاهدها في حياة المارة أمامي، أوروبا تتدفق كنهرٍ هادئ وخفيف، الأطفال يسابقون بعضهم، النساء ممتلئات بالحياة، الرجال في خفة عجيبة، كل شيء هنا مختلف إلا أنا يا عزيزتي أجدني مقيدًا بهويتي وعذابات وطني. مشيت كثيرًا، تعمدت الوقوف حيث يقف الكثير، كنت أقترب من أحاديث العشّاق، أختلس النظر إلى أعين المسنين وهم في نشوة اللقاء الذي يتفرقع على أبواب المطارات. العاملون ينهكون أنفسهم بالابتسامات التي قد تبدو زائفة تارة وصادقة تارة أخرى، فأتساءل بحزنٍ عميق: لمَ اليمن وحدها لم تكن هكذا؟ وكان هذا التساؤل يرهقني، يراكم أحقادًا مثقلة بالكراهية التي لا يمكن أن ينجو منها المرء دون الانتصار على من يحقد عليهم ويحمِّلهم الكثير من الكره والبغض، من دمروا هويته، مزقوا وطنه، أغرقوا جثته بالدماء الملتهبة. أقف أمام فاحصي الجوازات، أراقب أعينهم، حركاتهم، ترحيبهم

بالقادمين من مختلف دول العالم، وأشعر بركبتي ترتعش، أشعر باليمن تسري في ذلك الارتعاش، أعود بعيني من جديد إلى الجواز، هل سيُرد من هذه النافذة، هل سيبتسمون بوجهي كما يفعلون بلطفٍ مع هؤلاء؟ أردد في ذهني الكثير من الأدعية: يا الله لا تجعلني أخجل من يمنيتي، من هويتي، من وقوفي وعلى يدي ثلاثون مليون ضحية، وبلطفه أتجاوز الحاجز منتشيًا بانتصارٍ عابر يمدني بالقوة ويجعلني أبحث عن معركة أخرى.

لا أتوقف عن التأمل كقادم من أعماق الريف المنسي، أراقب الحياة هنا، أداعب المارة بنظراتي، أحاول التحدث بلغتهم ولا أقدر: فروم يمن، أنا هنا، ويمني، إنسانٌ من هذا العالم يعيش بأنفاسٍ متقطعة، بأحلام كبيرة، ولا أجد إلا التساؤلات الغريبة في أعينهم، أخرج جوالي متباهيًا بأننا في اليمن نمتلك نفس الماركة، ولنا حياتنا الإلكترونية أيضًا، ولكنّا مع الأسف لدينا الكثير من الفسدة، يحكمنا القتلة البشعون، وهذا الفارق بيننا وبينكم. ولا أجد إلا صدى هويتي تعيدني إلى اتزاني كي أظل قويًا صلبًا عتيدًا، ولكنني أبقى في هذا البحث المميت: أين اليمن من هذا كله؟ تخترقني رصاصات الحرب وتجعلني أسير مترنحًا على قطرات الدماء التي ترسم عذاباتي وأحزاني، وفي لحظةٍ قلقة ومرتبكة وقفت أمام لوحة جميلة أشاهد من يدخلون إليها من أجل التقاط صور سريعة، يرقصون على قاعها ببهجة وسرور. أخرجت جوالي مثلهم

وصرت ألتقط ملامحهم أيضًا ، وهذا الأمر أسعدهم واحدًا تلو الآخر.. كان كل واحد منهم ينظر إلى عدسة جوالي بابتسامة لطيفة ، بحركة جديدة ، شكروني وذهبوا في طريقهم وأنا أشيعهم بنظرات تحمل بلادي كلها ، أحزانها ، أوجاعها ، فقرها وعطشها.. وفجأة عادت إليَّ امرأة بدينة كانت هنا تأخذ صورها ، تبتسم لأصدقائها ، لأقربائها ، لكنّها عادت من جديد ، تسير بخفة ، لم أفهم قولها في البداية ، لا أدري ما الذي دفعها للعودة ، قلت ربما تذكرتني في لحظة إنسانية صادقة ، ربما نسيت حركة أخرى ، وبعد الكثير من الإشارات فهمت بأنها تريد التقاط صور لي ، طلبت جوالي ، وقفتُ برزانتي وثقلي ، ابتسمت قليلًا ، رأيت لحظتها طفلًا من تعز ، صفعني عجوزٌ من الحديدة ، انتزعني صديق يحاول النجاة من بحار ليبيا.. وعندما لحظت هي هذا الشرود الطويل أعادتني إلى وضعي الطبيعي بإشارة تلقائية فهمتها ، تطلب مني القليل من الجنون لأختلق حركة طفولية أضحكتها قليلًا ، شكرتها بامتنان صادق.. قالت أربع صور ، قلت أنا يمني ، وسعيد جدًا ، نحن سعداء مثلكم أيضًا مع الكثير من الصبر ، والكثير من الأحلام ، وسنكون ما نريد.

شرود وطن

أمي العزيزة:

دائمًا ما يسألني عن الوطن، مفهومه، معناه الحقيقي، تلك المضامين التي تناقض بعضها دون أن تجمع على مفهوم واحد. شاب في مقتبل العمر وقع رهينة المنفى الذي لم يجد منه إلا تساؤلات تأكل حياته، وتفاصيل يومية تسير في الطرقات نفسها، في كل مرة أجلس معه، يسألني: ما الوطن يا فيلسوف؟ يخرج هذا السؤال من فمه الساخر بطريقة تفزعني، يمدُّ الحرف الأول من سؤاله مستفزًا وفي عينيه تتراقص آلاف الضحكات الممزوجة بالحسرة والندم، بينما أنا لا أقوى على الإجابة وسؤاله يقف كسيفٍ على قلبي: ما الوطن يا حميد؟

أجاب- ذات يوم- غسان كنفاني عن هذا السؤال قائلًا لصفية: "الوطن هو ألا يحدث كل هذا"، وعاش عمره كله يفتّش عن فلسطين الحقيقية ولم يجدها إلا في قلبه الذي توقف في هذا السبيل العظيم. صديقي الحائر الساخر لا يعرف شيئًا عن غسان، لا يعرف صفية، الزوجة التي ظلّت ترمِّم أوجاع الوطن المسلوب بصمت وصدق.. هو يبحث عن إجابة مني، لكنه في الوقت نفسه يعاقبني، ويدرك هذا جيدًا، وأنا في صمتي الطويل لا أقدر على مجاراته، ذلك الصمت الذي يتسع على جوارحي مع كل طلقة تفصلني عن وطني وإنسانه المجهول في أضيق زاوية حالكة ومظلمة، يعاودني كل مرة

بهذه التساؤلات، وأعود معه في شرودي الذي يسعده أكثر من الإجابات نفسها. يعاقبني وكأنني المسؤول الذي ركل عمود وطنه وحوّل سقفه إلى أطلال تسير عليها الذكريات دامية ونازفة. قلت له ذات يوم: "الوطن هو ما تحمله في داخلك، وطنك الحقيقي جوارحك ونفسك وروحك، ذهنك وقلبك، وطنك الذي تسأل عنه يرافقك حتى في منامك يا صديقي".

بهذه الإجابة حاولت أن أخرجه من تلك الدائرة التي وضع فيها متارسَ من السخرية الموجعة، وليتني لم أجب، ليتني تركته عالقًا في ذلك القدر الكبير من التيه الذي يحوّله إلى قلبي ساخرًا مني ونفسي ووطني. كانت كل أسئلته تخرج بكبرياء الرجال الذي عجنتهم الحياة حتى صاروا كالجبال.. هذه المرّة أفلت رأسه منه، عكف على ركبتيه صامتًا، لم يكن يسبِّح الله، ولم يكن يحضّر سؤالًا آخر، كان يستجمع وطنه، ذكرياته، أحلامه، وتلك التفاصيل التي أخرجها من جوف صمته واقفًا على قلبي، مُحدثًا صدامًا لا يزال تصدُّعه يخيم في رأسي حتى الآن.. "داخلي دماء وأشلاء، جثث ورماد، أعين ضائعة وأخرى غارقة وبقايا منها دون ماء، تسير على ذهني المخاوف كل يوم، القلق يحيلني إلى صَرَع المسنّين، وخوف أطفال الشوارع النائمين على قلبي أيضًا، هل هذا هو الوطن الذي تقصده الآن: دمع أمي، وضياع أبي، والأرصفة الضيقة التي تحمل جثث أبنائي؟ هل هذا هو الوطن الذي تعنيه أيها الفيلسوف الأحمق الذي لم يدرك قول غسان لصفية: "إن الوطن هو ألا يحدث هذا"؟

قال كل شيء، وحمل نفسه إلى حيث لا أدري، لم أعلم أن هذه الإجابة ستجعله بهذا الغليان، ولم أكن على علم بصداقته العميقة بذلك المناضل الأسمر غسان، شيَّعته حتى ضاع مني؛ وليتني لم أفعل.

كوخ قابل للترميم

أمي العزيزة:

رأيته مستلقيًا على وجع صباحيٍّ لم يدعه يعانق خيوط الشمس الأولى، كما كانَ يفعل قبل سنوات الغبار الجامحة، لم يكن يتخيل نفسه في بلدٍ آخر، وهو بهذه الكيفية التي تدعو للغرابة والشفقة في آنٍ واحد. طيورٌ منتعشة توافيه بين الحين والآخر بنغمات الطبيعة الساحرة دون أن ينتبه، سحبٌ كأنها طالعة من جنة اللّه تتفتّح أمام ناظريه لكنه لا يبالي.. الأقدام المستعجلة تسابق رياح الصباح الأولى وهي تداخل بعضها جواره دون أن يسمع أو يدرك شيئًا، لم يكن هناك شيء يستحق الانتباه في نظره، عيناه زائغتان تكادان تفرَّان من مكانهما إلى حيث يطيل النظر.. حاولت الحديث معه دون جدوى، صمتٌ يأكل ضجيج الواقع المنتعش الذي يدور بالقرب منه، سألته: من هناك، من تراقب، ماذا تفعل جوارحك مع عينيك في ذلك البعد المخفي؟

لم يجب أيضًا!

شرودٌ تدجّنه الأفكار المتخبطة في منفاه البعيد، ربما يسأل نفسه عن ذلك الحلم البعيد، عن تلك البقعة التي رحل عنها والده دون أن يرمم كوخه المتهالك، عن بقايا حياة تركها في منتصف حلم لم يكسب منه إلا لذة الخيال العابرة، وكأنه في حالته هذه قَد اختار تلك التفاصيل وطنًا حقيقيًا لتبقى نظرته

بهذه الاستماتة تبحث عن نفسها في هشيم يكاد يأخذ بصره من شدة اللهب.

كان يمنيًا يا عزيزتي، لم تكن تفاصيله بذلك الغموض التي تجعل عابرًا مثلي يبحث كثيرًا عن هوية هذه الجثة الملقاة على رصيف شديد القحالة والعطش.. كانت جثة عليها دماء الإنسان المصروع بهويته وحلمه، بأرضه ولعنة جغرافيتها المغرية، فكرتُ في ما يمكن فعله الآن، لم أجد حلًا مناسبًا، ظلت هيئته تتسمَّر واقعًا خلقته ظروفه الخاصة، وظل مخلصًا لهذا الواقع حتى نفد صبري وسرت في طريقي أبحث عن إجابات لتلك النظرات التي لم ترفّ لحظة واحدة. كان يمنيًا، ولا يزال يمنيًا، أكَّدَت هذا رعشتي وأنا أطعن عيني الدامعة بأصبعي التي تعيش اضطرابًا شيطانيًا عصف بأوردتها وأعصابها. وقفتُ على ناصية الشارع أسترق النظر إلى صاحبنا اليمني معتقدًا بأن شيئًا آخر سيحدث حتمًا، لم تمر دقائق على تغير أحدثه ذلك اليمني المتجمد، نظر يمينًا شمالًا، خرج من جموده، هبط من تلك الرحلة التي ظل فيها على مياه عينيه دون أن ترمشا، وأنا أمامه كالأبله، ليفرش خرقة بيضاء مليئة بالبقع التي نجدها دائمًا في خرق المتسولين. فرشها بحركة سريعة وكأنه قد تحرر من خوفه وصار يهذي للمارة بكلمات جلّها مؤلمة تحكي قصة من الزمن الأسود، وتبدأ: "أنا يمني"، وتسير على عجلة وكأن الموت يطاردها- حرب، دون منزل، مات بعض أولادي وبقيتهم دون ملجأ دون مأكل، دون مشرب- "أنا يمني".

حياة مسروقة

أمي العزيزة:

أحزنني اليوم حديثٌ مع طفلٍ يعيش الغربة وهو يسرد واقعه في بلد لا يعرف منه إلا السكون الذي يطال المسنين ويعيشه هو بكل تفاصيله، لا يجد أصدقاء يلعب معهم ولا يعرف حياة يتقلّب عليها بطفولته التي سُرقت من أعماق قلبه في لحظة كان يجب أن يكون فيها كبقية أطفال العالم.. قال إن جارهم يمنع طفله الوحيد من اللعب، وعندما ينزل إلى الرصيف من أجل أن يبحث عن طفولته يعود حزينًا مهمومًا. كنت أشاهد في عينيه حياة تهرب منه وهو بالكاد يضعها على لسانه أمامي من أجل التخفيف عن أثقال روحه النقية، سألته: من أعز صديق لك؟ قال: "فلان في اليمن، وأنت، وفلان آخر هنا"، الأخير بعمر والده، وهذا ألم آخر تجرعته وأنا أتلمس تفاصيل هذا الطفل التي وجدتها أطول من ثوبه الأنيق وأكبر من عقله الذي يتورّم بأوجاعه وهمومه. لقد أخذني هذا الطفل إلى حياة كاملة من طفولة يمنية تمرغت في وحل الحرب وصارت نسيًا منسيا.

أتمزق مع كل شهقة يمنية، يتطاير قلبي مع كل حرف يحمل بداية حكاية لا يمكن أن يتجرع مرَّها إلا من عاشها، قلت له: ماذا تريد الآن من نفسك؟ رد وقلبه يكاد يهرب من مكانه: "أريد ألعب معك كورة"، وهذه جزئية سوداء من حياة اليمني طفلًا وشابًا وشيخًا.

لن أخون أبي

أمي العزيزة:

منذ أشهر يطلب صديقٌ مني كتابة رسالة إلى أبيه، بالنيابة عنه، يعبّر فيها عن شوقه وحنينه ومحبته التي تملأ قلبه لوالده الفلاح المزارع الأصيل، ولكني لم أفعل، عجزت عن بلورة هذه الفكرة التي كلما صادفت صاحبها شعرت بروحي تجهش بالبكاء وهي تناجي أبي المرحوم الذي أفتقده جدًا. لم أستطع أن أفصح عن عجزي لصديقي الطيب، ولم أقوَ على كتابة الدموع في صفحات تشبهني وحدي، والآن لا أعرف ماذا أفعل.

قبل قليل وضع رسالة في خانة الواتساب يذكرني بالعيد وحاجته إلى طلبه النبيل، تركتها دون رد أيضًا. وجدت أبي في هذه الليلة يسير على شرايين قلبي، بكيت، سقيت قحالة يأسي بصوته العذب، تقطّعت على وقع هذا الاستحضار لحظات نحيبي الذي يندفع في أعماق القلب كطفلٍ هارب من ضميره الأبيض، لا لشيء، فقط خوفًا من تجاعيد والده وهي تترابط في موقف أحمق لم يعجبه، وهذا هو أنا، الطفل الذي أخذ الله فردوسه الأبيض في منعطف كلّما عدت إليه وجدتني مبلولًا بالمناجاة الصادقة ومرتعشًا بالابتهالات الخاشعة. كيف أخون أبي يا صديقي بعد كل هذه السنوات من الاحتواء، بعد كل هذه العذابات من الحرمان، كيف لي أن أكتب ما

خبأتُه في أعماق قلبي من مشاعر ستأخذها إلى والدك الطيب الكريم، بينما أبي لا يسمعني أو يراني؟!

ليته يدرك فظاعة هذه المهمة.

أنا .. أنتِ

أمي العزيزة:

أعود إلى نفسي آلاف المرات، فلا أجدها إلا ممتلئة بحبك، أتجول في أزقة تفاصيلها ولا أجدك إلا أنت، أفتش في وجه الحياة عن ذلك الدر الكامن في عمقها ولا أجد سواك، أفترش المنافي واحدًا تلو الآخر ولا أجدني إلا فيك، أقرع الأبواب وأتخطى الحدود، أسير على السياجات الحادة، أتقافز كأرنب هارب من لهيب الموت ولا أجدك إلا أنت، أتسلق النجوم، أشاغب في وجه السماء كطفلٍ نزق بالألوان المزعجة، أبتهل خاشعًا في محراب وجعي، أستحضر اللّه ومعجزات أنبيائه، أحشد حولي أثينا بقصورها وفلاسفتها ونبلائها وفقرائها ومقاصلها ولا أجدك إلا أنت. أمشي خائفًا في دروب مظلمة، ألعن المنعطف الأول، أبصق على المتاهات والنوافذ والأنفاق، والأبواب الموصدة والمفتوحة، أركل الحياة على مؤخرتها ولا أجدك إلا أنت.

لا تلومي ضعفي، لا تشفقي على هواني وتكسّري، فقد منحتكِ روحًا حاربت كل أشرار الدنيا وانتصرت، منحتك قلبًا أحدثت فيه سهام الدهر آلاف الثقوب، ولكنه انتصر.

بوصلة دون اتجاهات..

أمي العزيزة:

أمطر شتاء الحنين على قلبي، فقفزت صنعاء في وجهي تحاكمني على هذا البعاد المضني، وأنا- كما تعرفين- لا حول لي ولا قوة، أقابل ذكريات عمري بعجز ثقيل، وكعادتي أهرع إليك للتخفّف من هذه التراكمات، أضعها في ورقتي مع قبلات كثيرة فأشعر بأنني قد عانقت نفسي، عانقتك، والبلاد كلّها.

تعود إليَّ صنعاء بحلَّتها التي عرفتها فيها أول مرة، أتذكر حياتي الأولى فيها فتجهش جوارحي وترتعش نبضات قلبي بدهشتها التي لم تتغير. عشت في بداية الأمر كغريب تائه، لم أكن أعرف أين ستستقر بوصلة روحي وأنا أطارد حلمًا أعرفه وينكرني.. كانت الأوقات الأكثر ثقلًا على روحي تلك التي تشارف على غروب الشمس وعلى ظلّها تتفتّح الملامح في شوارعها وكأنها على موعدٍ جديدٍ مع الحياة. وحدي كنت ذلك الغريب المغلّف بذكريات العمر الأولى من مدينتي الحبيبة، لم يكن في صنعاء ما يدعو للريبة والتوجس، ولكني كنت دون بوصلة.. كنت الشاب القادم من عمق الفوهة البركانية التي لم تُضئ له هذه الدروب الحالكة. عانيت كثيرًا على رصيف هذه البدايات، وكسبت فيها مناعة الاستقلال التي لا زالت تقاوم بقاعًا كثيرة مليئة بالغربة والغرابة.

قبل هذه الرحلة لم أكن أعرف من الكتب سوى التي كان مدرس الوطنية يغرسها في ذاتي، وكنت أجهل المنفلوطي وأنيس منصور ونجيب محفوظ وتوفيق الحكيم وزيد مطيع دماج، لم أعرف من هو نيتشه ولا جوته ولا ذلك المهيب العملاق كازانتزاكيس، ولم أتعرف من قبل على الأدب الروسي الذي شكّل دافعًا قويًا في أعماقي للبحث عن الإنسان الآخر من هذا العالم، لهذا انزويت في أول تجربة مع رواية "الجريمة والعقاب" التي أهداني إياها الأستاذ خالد الرويشان، وحين أتذكر هذا الانزواء أدرك بأن قراءة مثل هذه الأعمال في بداية المشوار مغامرة كبيرة، ورغم العمق النفسي في هذه الرواية استطعت التأقلم بسرعة مع الأدب الروسي وكنت كلّما أفرغ من فصلٍ أخرج إلى الشارع للبحث عن شخصيات هذا العمل العظيم، تحديدًا في لحظات الغروب الأولى، ولم أكن أجد ضالتي إلا في أعين البسطاء وهم يفترشون الشوارع بحثًا عن يد طيبة وكريمة تضيء لهم بقايا يوم يضيع في عمق الظلام بينما هم دون مأوى، دون مأكل، دون حياة هادئة. خُيِّل إليَّ أنني أعرفهم جميعًا، خصوصًا الأطفال الذين يلتصقون بأجساد أمهاتهم وأعينهم تراقب بحذر المارة المكشرة ملامحهم، وجُلُّ انشغالي كان بالبحث عن هذه الفئة من الناس، أراقبهم من بعيد، أمد يدي تارة بمحبة بسيطة، وأخرى أضع قلبي في أعين طفل شاحب لأسرق من سكون وجعه بسمة عابرة بلطفٍ يختبئ خلف لقمة يطعم بها وحش الجوع.

هنا كنت أجد ضالتي فقط، دون ذلك كانت تبدو لي صنعاء مدينة مُضجرة كئيبة لا تستقر على قلبها ألوان قوس قزح إلا في أعين هؤلاء، ألوان الحياة التي كنت أشاهد الجميع يمر فوقها منتشيًا وكأنهم يحشرون في أعين الأطفال تبلدًا متباهيًا بنفخة القات التي لم تستطع وضع قلب صاحبها في صراع الحياة العسير والمفروش أمام أعينهم.

لو سألني أحدهم بعد عشرات السنين: ماذا أهدتك الحياة؟ سأقول له دون تردد: هذه التجربة العظيمة.

أبي.. لا أكثر

أمي العزيزة:

كتبت كثيرًا عنكِ، أسقيت قبر والدي بسُحبٍ من العبرات، عشت بينكما محلقًا بأجنحة تحملكما في غيوم تارة تبكي، وأخرى تبتهج.. رغم ذلك لم أفقد السيطرة على نفسي، لم أجدني أصارع رماد الظروف وهي تخوض معركتها على أبواب عيني، وقفت كثيرًا على شظايا مشتعلة، تجاسرت خلف الضعف والعجز والهوان والانكسار كي لا أجلب لأسرتي عار الاستسلام، عشت ولا أزال في منازل تجهلني وأجهلها، مناف تكشر بوجهي كلّما هبطتُ عليها بحقائب مليئة بالحنين. تسمرت على أبواب الطيش عاريًا من رداء المراهق المنتشي، وكلما شعرت بالانطفاء ألتفتُ لأجد قنديلًا لم يعرف الخفوت لحظة واحدة، وأجد مصباحًا يشعُّ بالبهجة والضوء، أعانق بهاء اللّه في عينيه وهي تأمرني بالتقدم وعدم الركون على اليأس في أشد اللحظات بؤسًا وهوانًا.. كان ذلك القنديل، ذلك المصباح والبهاء تجسُّد الأب الحقيقي الذي لم يكن يمثّل دور الأبوية على مسرح الحياة بقدر ما كان يختزن في قلبه رحمة كل الآباء.

أخي عمر.. لا أعرف ماذا أقول في حضرة هذا الإنسان الأصيل الذي وقف أمام العواصف كي لا تلفح وجهي وإخوتي عاصفة عمياء، لم يعش بعيدًا عنا ولم يكن في نفسه يصارع

مصالحه الشخصية دون أن يلصق أحلامنا على أوتارها ليكون هو عازفها الأول والأخير، بدمه وروحه، بجسده وقلبه. أقولها علانية وكلي فخر واعتزاز بأنني مدين لهذا الأخ الأبوي العظيم بكل خطواتي التي أسعدتكم، بكل نجاحاتي التي ستسعدكم، بكل أحلامي التي تحقق منها والتي ستأخذ حقها من الحياة عنوة. مدينٌ له بعمري السابق وما تبقى من حياة سأقضيها في معترك لن يكون لي فيها إلا أبي وأخي وحبيبي وصديقي عمر.

هل تراها مثلي؟

أمي العزيزة:

كان بيننا يعيش حياتنا التي نعيشها، لم يكن يقول شيئًا، سكونه العجيب وصمته الدائم، وأحاديثه الخجولة، وأشياء كثيرة كانت تميزه عن المجموعة المتشابهة.. لا أعرف ما الذي يخالج قلبه، وما هي الأشياء التي تعصر روحه التي تطلُّ من ملح دموعه فائرة ومضطرمة. سألته ذات مرة عن سر هذا السكون والهدوء، قال لي: عقلي باهت يا صديقي، لا أشبه أحدًا هنا، ولا أحد يشبهني، أجلس معكم ولي دروب مختلفة أسير عليها ولم أصل بعد.

- متى ستصل إذًا؟ نريد رؤيتك بشكلٍ مختلف وهيئة مغايرة لكل هذا الذي تعيشه ضجرًا وكآبةً، نحتاجك بيننا روحًا وفكرًا وجسدًا، ألا يكفي كل هذا الجمود؟

- لا يهمني متى الوصول، بقدر ما يهمني الاستمرارية بالسير، ولن أضع أمتعة روحي إلا على البقعة التي تشبهني، أنا أبحث عن ظلي، عن ذلك الإنسان التي جبلته الحياة منتعشًا ومنتشيًا، وها أنت تراني أحمقَ يأكل نفسه ببطء، ولكنني راضٍ عن نفسي وهذا ما أحتاج إليه الآن.

لم يكن يحب الحديث كثيرًا، أفشل في استمرار حواراتنا، يقفل كل شيء بخاتمةٍ باردة يكسوها جليد صوته وجمود نبرته، لكنه مضطرم المشاعر، هائج الذهن والخيال.

كانت حالته تخيفني، وكنت أخشى عليه من الجنون والضياع، لكنني اعتدت هذه الهيئة الغامضة، ألفته حتى صار يراود مناماتي ويملأها بهذيانه كمراهقٍ أفرط في السُّكر. يناجي الحياة تارة، وأخرى ينشد الموت ويناشده، تمتص سكونه ذكريات عاشها في نعيم تسرب من بين أصابعه.

قررت أخذه في جولةٍ بعيدة، ليس في حديثنا فحسب، وإنما لإخراجه من الزاوية الضيقة التي تشعل الكثير في روحه وذهنه.. لم أفلح في المرة الأولى، وعندما عدت إليه ثانية تجاوب بروحٍ منتعشة. مشينا سويًا وخيوط الفجر ترافق خطواتنا الهادئة، لا أتذكر أنني رأيته هكذا منذ سنوات كان السكون فيها يغلف أحاديثنا. كل شيء في هذا الصباح مختلف، شكله، حديثه، خطواته، نظراته، كل الذي ألفته فيه تبدّل وجعلني في حيرة مميتة أتابع السير بصمت ضبابي لا يتضح فيه شيء. لم يتوقف لحظة عن الحديث، كأنه كان يعزف على التراب الذي نسير عليه، تنساب الكلمات من فمه مرتبة ورصينة، قال والشمس تضيء وجهه:

الآن وصلت يا صديقي إلى حيث تهجع روحي وتسكن من قلقها واشتعالها، لقد عانيت كثيرًا، جابهت كل هذا الموت الذي ظل يحدق بحياتي حتى غلبته، وغلبت مخاوفي، تجاوزت قلقي وخيالاتي المرعبة، كانوا هنا في قلبي يمرحون ويرقصون على نزيفه، لم يكن أحد منهم يدرك ضريبة صبري ووجعي، لكنني انتصرت أخيرًا في اللحظة التي ترقب الجميع فيها

سقوطي وانكساري.. انتصرت لنفسي عندما عزمت على السير وكبح نفسي ونزوات انتقامي، انتصرت عندما وصلت إلى هذا المحراب العظيم الذي شيَّدته روحي.. لن تجدني الآن هنا، سأغادرك روحًا، فكرًا، جسدًا، فقد وضعت فيك بذرة الخلاص من كل الأشياء التعيسة التي تأخذ الضعيف إلى هوانه وتبقي القوي في عنفوانه حتى الأبد، حتى الوصول إلى تلك القمة.. هل تراها مثلي؟

- لا أرى شيئًا.!

- حاول مرة أخرى، ولا تدع اليأس يغطي عينيك.

ثم اختفى...

شظايا على الطريق

أمي العزيزة:

أجلس على بعد أمتارٍ من الحياة الطفولية التي تتراقص على الضفة الأخرى مني، تلك حياة لا أظنني قد عشتها بذلك القدر الذي يجعلني أهبط مرتعشًا على حافة حنينها المفرط. كل الذي أتذكره من طفولتي ندوبٌ في مقدمة رأسي لا تزال حتى اللحظة تذكّرني بضعفي وهواني.. ندوبٌ كانت في لحظة فارقة من طفولتي، أشعَرَتني بحيوية الرجل المقاتل وهو يضع جثث قتلاه أمام أصدقائه كي يثبت لهم بأنه الأجدر بهذه المعارك العنيفة.

عشت طفولة ممزوجة بالجدية والمزاح، أتذكر عند دخولي المدرسة لأول مرة، كنت حينها بطل أبي الذي ظل يمسك بيدي وهو يقدّمني لأصدقائه الكرام بطريقة جديدة: "الدكتور حميد، المحامي حميد، الطيّار حميد، سيدخل المدرسة غدًا وسنراه بعد سنوات سياسيًا عظيمًا، هذا الإرياني يا محمد مسعد".

لحظات لا يمكن نسيانها، صار ينادني بعض أصحابه بـ"الإرياني"، سألت ذات يوم جاري العجوز عن الإرياني، أجاب ضاحكًا: يشبهك الإرياني، قصير القامة لكنه خطير جدًا. من حينها صرت أكره هذا اللقب والأصوات التي تنادني به.. لمَ الإرياني؟ هل كان هذا محبة من أبي، أم أن

الهيئة التي أنا عليها دعته إلى هكذا تسمية صارت تؤذيني بشدة.. أعرف جيدًا محبة أبي وعطفه وحنانه، كنت أجدني بطله الأول، وجهه الحقيقي الذي يعبّر عن امتنانه للحياة على طفلٍ طيب مثلي، وهذا كان يدعوني إلى تحمّل الكثير من المسؤوليات التي لم أكن بحاجة إليها كي لا أخرج من الدائرة التي تسعد أبي، لهذا لم أخالط الكثير من أصدقاء الطفولة، حملت الشهامة، والقلم، الجاه، والكلمة، عُجنت بقضايا اجتماعية كنت أسهر مع أبي ورفاقه حتى الصباح نبحث عن حلولٍ مرضية للجميع، لم أكن أتفوه بكلمة، لكنني كنت أندمج كليًا في هذه المواضيع متأملًا ملامح الحضور.. ماذا يحمل هذا خلف تجاعيده، لم هذا المنكوس شاحبٌ إلى هذا الحد، ما سر قوة صوت هذا الرجل المتحذلق الذي يُفشل كلَّ الحلول ويعيدنا إلى الصفر؟ كل هذه الأمور كانت تستهويني وأخوض بها حواراتي الخاصة لأبدو رجلًا يُعتمد عليه في كل الأمور.

أسهبتُ في هذه التفاصيل لأنني أتحدث عن طفولةٍ جوفاء، لا أعرف هل كان عليَّ أن أسير في طرقٍ مختلفة لأعيش هذه الطفولة التي أراها الآن في أعين هؤلاء الأطفال؟

لم أمتلك لعبة كبقية الأطفال، كان لديَّ أبي وأصابعه المتشبثة بصلابة، لهذا أحاول تعويض تلك السنوات بتفاصيل صغيرة وأفشل باستمرار. حدثتكِ عن ندوب جبهتي التي لا تزال حتى الآن.. كانت بسبب جديتي وصرامتي، أتذكر

عندما طلبتِ مني أن أذهب إلى السوق لجلب غرضٍ ما، كان منزلنا حينها مكتظًا بالضيوف، وكنتِ متعجلة جدًا وطلبت مني أن أعود بسرعة، فسلكتُ طرقًا أخرى، هرعت خلف مركبة حمقاء، قبضت على أطرافها فسقطت وعدت ببقعة مليئة بالدماء، ظننت بأنني سأصل بسرعة لكنني أخفقت في العودة إليك في الوقت المطلوب.. في اليوم الثاني أضيفت ندوبٌ جديدة على مقدمة رأسي، ولكنها عظيمة، أعزي نفسي بخدمتك.

في هذا المساء رأيت الأطفال يلعبون الغميضة، القفزات المتنوعة، الجَلْد المتبادل، بينهم طفل بذراعٍ مبتورة، كان يلعب بخجل، فلا يقدر على تغطية عينيه بيد واحدة، ويخفي ما تبقى من يده الأخرى داخل كمِّه المقصوص، تارة يقلّده أصدقاؤه وأخرى يحاول تقليدهم. ضعت في هذه التفاصيل المؤلمة، تخيلته وهو يحاول إخراج الشظايا التي مزّقت نصف حياته وتركته على هذه الهيئة، راقبته وهو ينزوي بعيدًا كي يلملم كمَّه ويعيد نصف ذراعه إلى الكُمّ الخجول. أمه في الطرف الآخر تراقبه بين الحين والحين، كانت برفقةٍ عائلية جميلة وهادئة، تبدو على هيئتهم ملامح المنفى، هاربون من الموت إلى الموت.. كانت تكفكف دمعة هاربة وسط زحام الأحاديث المبتهجة وهي ترى طفلها يحارب كمه بوجع لا يجفّ، وهذا الأمر أصابني بالتبلد والخدر.

لماذا الإنسان بهذه البشاعة التي تجعله يحيل حياة أخيه الإنسان إلى هذه الفظاعة المخيفة؟

تجاعيد طفل

أمي العزيزة:

وحيدٌ، مثل الكثير ومثلكِ، لا نختلف إلا بالزوايا التي ننظر منها وإليها بطرق مختلفة، يأخذني شرودي إلى طفلٍ يفترش الجوع في مدينة تعز، ويأخذك وجعك إلى ثكلى تقف على عتبات موتها متمسكةً بأمل عودة ابنها الشهيد. أشاهدُ الجوع يطلُّ من ثقب بطن ممتلئة بالتجاعيد لطفلة تسير عرجاء خوفًا من الرياح. تتأملين منفاي الجديد من عين وطنٍ يحتويك وعلى جوانبه تفوح رائحة الحرب.. لسنا وحدنا، لستِ وحدك، لست وحدي، لدينا أوجاعنا، لديك دموعك، لديَّ قلقي، وهناك حيث تأخذنا العبرات تسير جائحة عمرنا وكأنها عاملنا المشترك الوحيد. أبحثُ عن وجعٍ آخر، وتبحثين عن ثقلٍ جديد، تسألين: بماذا تفكر يا ولدي؟ أسألك باكيًا: أليس المنفى عار؟ ولكنكِ لا تردين، ولا أفعل أنا.. أخرج من وحدتي وعلى جبيني جثث الماضي، تنامين جواري وعلى قلبك أشباح مستقبلي، تسألين: ما القلق؟ أسألك: ما الطمأنينة؟ ولكنني لا أرد، ولا تفعلين، أعود إلى وحدتي ثم تنامين، أهرب من وحدتي وأقول لنفسي: هنا مات حلمي، وبالمصادفة تسألين من جديد: ما الحلم؟ أجيب: هو أن تموت في منفاك، لكنك لا تفهمين، أو أنك لم تريدي ذلك؛ فتردين ساخطة: مات عمرك مشنوقًا بالحلم، ثم تبكين، أقول لك مواسيًا: لا

أزال أصارع حلمي وسنأخذ بثأر عمرنا، تضحكين وتقولين وكأنك تعمدت صفعي: ولكنك لن تموت في بلادك، أصمتُ، تصمتين أنت أيضًا، نشاهد السماء معًا، نبكي مرة أخرى، للمرة الألف، تسألين بتثاؤب: ما الحياة؟ أقول لك: المعنى، تضحكين ودمعك على قلبك بارد ثقيل، تعودين من جديد وتسألين والنعاس يتسلل من بين جفونك: أين المعنى؟ أقول لك: في الحياة، وبعد صمت طويل نبكي معًا، نبكي وحدتنا، منفانا، حياتنا، أحلامنا، وهذه البحار التي ستلتهمنا دون رحمة أو شفقة، وليتك تسألين مرة أخرى، ليتني أجيب.

جدلية معقَّدة، دعينا نتركها للرياح حتى لا نتعب أكثر.

لا أزال واقفًا

أمي العزيزة:

عندما أعود إليك سأتجرّد من كل منا في العمر، أتجدد بك ومعك، سترقص روحي، قلبي، وقتي وكل مشاعري بهوسٍ لا يخمد، أضع كل متاعب الحياة جانبًا، أنتعش بتلك التفاصيل الصغيرة التي قد لا تعني الكثير، لكنها كبيرة وعظيمة في قلبي. عندما أعود سأتخلّص من هواجسي، قلقي، توجساتي، أخلق في أعماقي روحًا لا تصلح إلا للحياة، أتجاوز تشوهات الزمن، أركل جراحاتي، همومي وأحزاني لأبدو معك ملاكًا هادئًا مطمئنًا خلق من جديد، لن أتصنع الجنون في هذا، لن أواري شحوب محطاتي، ولن ألطّخ عمري بمكياج براءة زائفة.. سأعود معك طفلًا لا يحبو إلا على قلبك، لا تتحرك أصابعه إلا على أوتار نبضاتك، لا يأتي خائفًا سعيدًا مستقرًا وسالمًا إلا إليك. ليتني أقدر على العودة إلى سيرتي الأولى، وهج عمري الذي بزّغته الطفولةُ بياضًا وجمالًا، ليتني أقدر على تكوين نفسي من جديد حتى أعطيك ما تستحقين من الحب والاحتواء.

أقول هذا لأن الحرب أكسبتني نفسية أخرى، ولكنني لا أعرف كيف أصوغها في قالب سليم خالٍ من التشوّه الذي لن يترك قلبًا دون شفقة ولا عينًا دون حسرة. شابٌّ مثلي لم تكن هذه الميادين مهبطه ومترعه وحياته الطويلة، ومع هذا ألفتني بمرارتها وألفتها بعزتها وعظمتها.. لا أزال أتذكر

لحظاتي الأولى في عمق المعارك، خطواتي التي شيّعت أجسادًا ترك أصحابها نسمات أرواحهم في الوجدان وذهبوا باسمين، كان عليَّ أن أشيِّع تلك النزوات وأنا أسير على مسافة واحدة من الموت، أن أحمل أجساد أصدقائي كل يوم إلى بقاعهم الأبدية وملح دموعي يجفُّ على تربتهم الطيبة، تلك التي عليها استقامت نفسي وهرعت دون بوصلة لاقتحام الظروف الصعبة، ولم أسقط.

عُجنت بطينة الشهداء، بأحلامهم وإيمانهم وتوقد قلوبهم المتطلعة إلى غدٍ أجمل، سواعدي اكتملت بهذا الانتماء، فقد حملت في قلبي حريتي وكرامتي وإيماني اللا محدود بأحقية الإنسان الذي لا يمكن أن يكون إلا كريمًا عزيزًا مصانًا. خضت الكثير من المعارك، ترصدت نزواتي يومًا بعد آخر، جعلتها على فوهة الحرب تتطاير كرماد خائف ولم أكن دونها إلا قويًا يتطلّع إلى ما هو أقوى؛ فلولا هذه الظروف لاتخذت حياتي مجرى آخر، ولا أظنني سأكون بهذه القوة التي أنا عليها أقاوم ماضيًا داميًا، وحاضرًا ممزقًا، ومستقبلًا مفخخًا، ومع هذا كله أنا بخير، أشعر بالرضا الممزوج بالامتنان لكل المراحل التي حاولت تكبيلي ولم تستطع، وللطرقات التي حشرت في صدرها حفرًا مكدّسة بالأنياب الحادة التي تكسرت على قاع إصراري وعزيمتي.

رغم هذا السواد؛ سأعود إليك بهيئة مختلفة؛ فلا يزال هناك متسع يستحق الحياة، يستحق البقاء، يستحق الكفاح والنضال الطويل.

الوطن أغلى

أمي العزيزة:

كيف لنا أن نسلّم آمالنا العظيمة لكمائن اليأس السوداء، بينما أبطال الجمهورية في عنفوانهم المعهود يقفون على خيطٍ هش بالكاد يحملهم.

أية وقاحة تلك التي تجعلنا بهوانٍ أحمق نرفعُ أشرعة هزائمنا في ذواتنا، بينما هؤلاء في قمة تجلياتهم يزرعون أشجار المستقبل من بذور أنفاسهم ويسقونها بدمائهم؟ ما هذا الجبن الذي نتركه يتوغل في أحشائنا التي جبلت على البقاء وتمرّست في معارك العبث اللا ملموس ومقاومة المستحيل الغائم في أعماق الموت، حتى نبقى للأبد، لنا بلاد واحدة، وشعب واحد، وحياة واحدة، لنا الأبجدية واللغة، وأسرار المعنى الفريد والمتفرِّد، وذلك الاستناد التاريخي المترامي على صفحات خرجت من رحم العبور المحلّق فوق غيوم اللحظة ورهبتها، فكيف نجدنا تائهين، تهشّمنا جنازير الدول اللقيطة الهاربة من جذورها المصنوعة بدم اليوم والمعمَّدة بأوراق الوهم، ونحن الأصل الذي لا نهاية لجذوره، وهذه الدماء التي على هذه الظهور العتيدة، الدماء التي تحمل جذورنا الأولى، جذور الأزل المصبوغ برائحة القهوة، والأبد المصنوع من أصالة بخارها.

لو رأيت مستقبلي مكدَّسًا بالذهب، وفي الجانب الآخر جمهورية يمننا الكبير تنتظرني لما ترددت لحظة واحدة في

الدعس على ذلك المستقبل الرخيص وهرعت إلى ذلك الحضن الممتلئ بالأشلاء العظيمة والتضحيات الكبيرة، لأنني جئت من رحم المعارك التي خاضها ويخوضها رجالٌ شهدتهم وعرفتهم وأحببتهم؛ وسيبقى أملي بدفء ذلك الحضن حتى الأبد، لم ولن أقبل اليأس رفيقًا ملتصقًا بذواتي، ولن أغرق قواي في متاهات الضعف طالما هناك وطن نؤمن بعظمته وقداسته، لهذا أيتها العزيزة لا لليأس، يمننا الكبير هو مستقبلنا ومستقبل أبنائنا، وستنفضُّ عنه كل هذه التراكمات ويبصق بوجه غبار التاريخ ومن أعمتهم ذراته عن حتمية النصر المبين.

سأعود قبل أن أنسى

أمي العزيزة:

اليوم سألني صديقي مستغربًا: لمَ لا أحنُّ إلى رمضان المنزل والأم والأهل؟

لقد صفعني بطريقة لا يعرف ثقلها على قلبي.. لم أتذمر من هذا البعد ولم يبدُ على وجهي الاستياء، ربما اعتدت بعد مرور ستة أعوام قضيتها بعيدًا عنك. سؤاله أدخلني حالة من الصمت الطويل.. كان محقًا، أنا لم أصب بالتبلُّد لكنني وسط سخطه كنت هادئًا غير مكترث. أصبح كل شيء يسير على الدائرة المرسومة، دائرة المنفى والحرب وانتظار العودة، لم نتمكن من تجاوز هذا والخروج منه، سألت نفسي: هل حقًا نسيت كل شيء يا حميد؟ لكنني كنت على يقين بأنني لم أنسَ، اكتفيت بالرد على صديقي بابتسامة باهتة.

كان فمي يحمل صوتك، وطني، أصدقائي الشهداء والجرحى ومن تبقى منهم ومعهم في جبهات القتال.. الحياة التي أحياها ملتصقة بكم وحدكم ولست غاضبًا على نفسي أو منها، ربما يأتي رمضان آخر وأنا في منفى آخر، أو في مترس مع الرفاق، هذا أيضًا لا يهمني بقدر ما أخاف من اهتزازي وتراجعي. على كل حال فقد كان سؤال صديقي الطيب مؤلمًا بعض الشيء، حمل مزيج اللحظة ورثاء الماضي، افترش بوجه أبيض رأيت عليه حلمًا سنحققه ذات يوم.. هذه ليست

فرضية، نحن مفعمون بالإيمان، لا نعيش للحظة ذاتها بل لما ستكون عليه اللحظة القادمة، بما سيكون عليه حال بلادنا ومستقبل من سيكون عليها من أجيال أخرى تحارب كي لا تغرق أحلامها في هذا الوحل المتخم بالدماء والمكدس بالجثث.

نهاية قبل البدء

أمي العزيزة:

لماذا- ونحن وفي هذا العمر تحديدًا- لم نعش كما يعيش أقراننا في طقوسٍ هادئة وبسيطة؟ أشعر بالدوار وأنا أتجول في باطن هذه التساؤلات المرهقة، لسنا الآن على صدر الأربعينيات ولم نتلمَّس حتى أطراف الخمسينيات، لا نزال في منتصف العشرين، بداية المنتصف، يخيَّل لي وأنا في هذا الهذيان العسير بأننا فقدنا أنفسنا قبل عشرات السنين، كيف وأين؟ لا إجابات أيضًا.

ليلة الأمس كنت أحادث صديقًا، قال لي إن ما يعصر قلوبنا هي الفكرة، لم يحدد حينها نوعية وماهية هذه الفكرة، لكنه غرسها في قلبي وصمَتَ طويلًا.. لم أبحث عن هيئة هذه الفكرة، شعرت بجمودٍ يعتلي جسدي، وصرت أتفرقع من الداخل. لقد وصلنا إلى مرحلة ما قبل النهاية، وها نحن الآن نخيطها كي تبقى للأبد، كي لا نموت بعدها، وهذا مرده إلى جوهرنا الذي تشكل في ظروف يصعب علينا تفسيرها، لكنها في الوقت نفسه تُظهر نفسها، تبرز ونحن نبحث عن ذواتنا الحقيقية، ونحن نتصالح مع أنفسنا، لا لشيء أكثر من طموح العيش بسلام. قبل لحظات أيضًا سألني صديق آخر عمَّا أراه فيه من الأشياء المميزة، قلت له دون تردد: تصالحك مع نفسك، انسجامك مع ذاتك، وهذه الإجابة التي وضعتها

فجأة أيقظت ذاتي بشكلٍ مخيف، حاول صديقي البحث عن تفسيرات أعمق لقولي هذا لكنني كنت منشغلًا بنفسي أعريها أمام ذهني الملتهب، وأقول لها: ماذا عنك أنت، لمَ لا تتصالح مع نفسك؟

أفقدتني هذه اللحظة توازني المعهود، وجعلتني أسترجع لحظات شعوري بالاتزان الذي عشته، ولم أجدني إلا أكبر من نفسي، أطول من قامتي، وأعمق من هموم عشريني لا يزال يحاول التسلق على جدران الحياة اللزجة والمبلَّلة، ليشعر بعشرينيته التي تضيع أمام عينيه.

نظرة أخيرة

أمي العزيزة:

أكتب الآن تنهيدتي الأخيرة.. تعبت وأنا أشاهد حياتي تتلاشى رويدًا، أعكف في غرفة صغيرة لا أحد يقترب مني، لا أحد يصلني، وأنا كذلك لا أطل على أحد. في الأسبوع الثاني من الحجر الصحي تتصاعد حدة الهوس في ذاكرتي، أستغرق كثيرًا في التفكير بأشياء مرعبة، ماذا لو رحلت الآن، من سيقف على جثتي المخيفة، من سيأخذ نظرة أخيرة على ملامحي؟

أشاهد الموت يقترب مني وأقول في نفسي: ماذا لو يموت الموت الآن ويتركني لأقضي ما تبقى من شغفي في هذه الحياة؟ لقد سلكت دروبًا كثيرة، تارة وصلت وأخرى تقطعت بي الأمنيات، وكنت أعود إلى البداية. أنا الآن في أضيق زاوية أصول وأجول في غرفة صغيرة، باهتة الملامح، كئيبة بسكونها، مخيفة بتكشيرها الذي لا يتوقف، لا أعرف متى عليَّ أن أنام ومتى أصحو، تشابهت أيامي كلها، وصرت أصارع نفسي وذاكرتي.. يقحمني قلبي في معارك جديدة، القلق يمتد على صدري ويجد ضالته بالكثير من الإصرار، تأخذني غيوم هذه اللحظة إلى سنوات عمري التي قضيتها باحثًا عن الحياة، أرى أبي يلوّح لي من خلف السحب، يفتح ذراعيه وعلى فمه بسمة غامضة، يأخذني إلى سنوات عمري الأولى التي

قضيت جلها معه. لهيبٌ آخر يأتي من منزلنا المنزوي في أقصى بقاع الأرض؛ فيحيل ذهني إلى شعلة مضطربة تتراقص عليها ذكريات لم أعانقها منذ زمن طويل.. لا أعرف كيف حالك يا أمي، أصدقائي، أقربائي، كل شيء فيَّ يتقوقع بذاكرتي، أحاول الثبات على صورة واحدة فلا أقدر، فجأة وجدتني هنا، كان النشاط يدب في أحشائي، القوة تجري في عروق قلبي، لكنني صرت خائفًا، تخيفني اللحظة التي أنا عليها، ذاكرتي، قلبي، تشنجات روحي، يرعبني سؤال الموت، وأخاف من وقعه الذي يتبادر إلى ذهني قائلًا: "لماذا علينا أن نموت يا رفيقي"؟ ولم أجد إجابة. أتسلق جدران الغرفة المغلقة لأبحث عن ظلام آخر، فتحاصرني أشباح الدنيا كلها، لا أجد مخرجًا من هذا كله، وبين الحين والآخر يردُّ الصدى: "لا أريد أن أموت، لا أريد الموت".

كعك العيد

أمي العزيزة:

إليكِ من جديد، ها أنا ذا أصحو مبكرًا بعد نوم ساعة واحدة فقط، كان أذان الفجر يسحبني من سريري إلى سجادتي الحمراء التي عليها تخشع تقاسيم روحي.

وحدي في الحجر المنزلي أبتهل للرحمن بالكثير من الدعوات الصادقة من أجل البشرية كلها.. تحدثنا نهار أمس كثيرًا، وأنت بين الحين والآخر تحاولين معانقتي، وهذا الأمر لم يكن ليمرّ بسهولة على قلبي، ليتني أستطيع فعل ذلك يا أمي. مرَّ الكثير من السنوات، أعرف هذا جيدًا، الكثير من الظروف والمناسبات، وهذا الأمر ينخر في ذهني، ولكننّا بقينا أكثر قربًا والتصاقًا.. اليوم يقال إن العالم يحتفل بعيد الأم، لكِ أن تتخيلي هذا السيناريو العجيب يا أمي، جانبٌ من أرواحنا تتراكم عليه توجسات الكورونا وقلق تلاشي البشرية، والجانب الآخر يفتّش عن نفسه في الاحتفال بهذا اليوم. بينما أنا مختلف جدًا، في الجانب الأول ستجديني قويًا لا أخشى شيئًا، لكنني في ذات الوقت أتألم على شعبٍ لم يعش حياته كما يجب وهو الآن يتقافز على مقربة من هذا الفيروس دون علم منه، وفي الجانب الآخر أنا كافرٌ بكل تفاصيله.

سبق وقلت لكِ: لا يمكن أن يحدد العالم بوصلة بقعتنا المقدّسة بيومٍ واحد نعود إليها ونذهب.. إنني محاطٌ بكِ دون

سواكِ، كل زفرة أضعها على صدر هذه الحياة تحملكِ ومعكِ ذكريات يقدر عليها النسيان. منذ سنوات وأنا أحارب لهدفين: الوطن وأنتِ، في سلامة الوطن سأجدكِ، وفي عناقكِ سأجدني، وبين هذا وذاك أخوض كل معارك الدنيا دون توقف. الوطن يا أمي جنّة الإنسان على هذه الأرض، لا شيء يعطيني معنى الانتماء والوجود أكثر من وطني، ولا يمكن لأي امرئ سليم الفطرة أن يغفو لحظة حاجة وطنه إليه، لهذا تركت كل شيء خلفي وهرعت مع الأبطال.. لم أكن أفكر بالهوّة العميقة التي ستقف بيننا، ولكنني الآن في الطرف الآخر أعيش لهذين الهدفين، وسأصل ذات لحظة فارقة وستصل كل جموع الشعب وأحلامه، وهذا إيماننا الكبير يا أمي يجعلنا أشد صلابة.

قبل قليل كنت أتحدث مع صديق، وفجأة فكرت بالكعك اللذيذ الذي تصنعينه، هذه اللحظة تعاودني بين الحين والآخر، ولكنّها الآن ملّحة. تأثر صديقي وتحوّل إلى شيخ لطيف يمطرني بالدعوات ويحثني على الصبر، وجدت في مواساته شفقة صادقة فهربت منها وشكرته بلطف وعدت إليك.. اشتقت للكعك، لم آكل كعكًا طيبًا منذ مدة طويلة، أتذكر كيف كنت أنزعج كثيرًا من تزاحم قطعها على المائدة وكنت أرفض تناولها رغم إصرارك على ذلك، والآن ما أشقاني يا أمي، ما أشد حسرتي على تلك اللحظات الدافئة.

قال صديقي: سيأتي الفرج بعد الضيق وهذه حتمية، هل تعرفين معنى حتمية يا أمي؟ دعكِ من هذا إذًا، قد تتساءلين كثيرًا عن هروبي من ردي على صديقي، ولكنني سأحتفظ به لكِ وحدكِ عندما نلتقي من جديد، ونكون على مائدة طيبة وهانئة. أنا بخير وقوي، أقول لكِ هذا دون أية مغالطات. بخير إلا من وجع الفقد يا أمي، وهذا لا يمكن تجاوزه حتى نلتقي، ولا شك في ذلك.

مائدة دافئة بالضحك

أمي العزيزة:

تلبسني الحمَّى كخرقة بالية، لا أدري أين أنا، كأنني في بقاعٍ مختلفة، بكل واحدة منها تحمل قطعة مني، ولا أقدر علىً الهرب.

بلغت الخامسة والعشرين من عمري، تبقى القليل حتى أقف على هذا الصدر الآخر ولم أنجز شيئًا يستحق الذكر، وهذا يتعبني جدًا، لا أراني إلا مقصرًا في كل شيء، ولا أجدني إلا أشلاء متوزعة على عدة جوانب. منذ سنوات لم ألمس قدمي أمي، لم أعانقها، لم تجمعنا مائدة بسيطة مليئة بضحكاتنا ونكاتنا، لم أجد وطني الذي علَّقت عليه أحلامي وطموحاتي.. منزلنا صار عاجزًا عن معرفتي، لا شيء جديدًا، الطبيعة عابسة وغاضبة، كل الأراضي التي حملتني تئن من ثقلي الباهت، تفاصيل كثيرة لم أستطع الهروب منها.

ليلة الأمس رأيت أنني أسقي شجرة في باحة منزلنا، كانت الأصوات تتزاحم من بعيد، متناغمة ومتفاوتة، صخب الشارع، ضجيج المركبات، حفيف الريح، طقطقات أقدامكِ وهي تعد لنا الحياة مبتسمة وراضية، وأنا أتلمّس تربة منزلنا، أحاكي فلاحًا من أقصى المغرب العربي، ولا أعرف نوع هذه الشجرة التي تمتص ماء قلبي ولا تنمو.. كنت أجهد نفسي في رعايتها، انقشعت السماء وأنا بجوارها، تبدد النهار والتحفت

الظلمة كل شيء، غابت الأصوات، تلاشى ذلك الضجيج الصاخب، ولم أغادر البقعة التي نمت عليها سنوات حياتي.. سمعتك تأمرين أخي بأن يبحث عني، رأيته يسير ببطء لكنه لم يلمحني، كنت خلف أبريق الماء الذي تكسوه حبات الطين الباردة، غادر المنزل ولم يعد، شعرتُ بالارتياح، وعدت إلى وضعيتي السابقة كصوفي شديد الإيمان، غارق في نفسي، في بلدي، في كل أحلامي.. لا أعرف كم مضى من الوقت وأنا على هذه الحالة الشاردة، حتى أخرجتني منها يدكِ وهي تربت على كتفي. كان صوتك متعبًا لأنه ناداني كثيرًا، حاول إيقاظي حتى ذبلت حباله، سألتني: ما بك يا ولدي؟ لم أقل شيئًا؛ فقط ارتميت في حضنك وبكيت كثيرًا، بكيت ولا أزال.

الجحيم ينتظرك

أمي العزيزة:

أرتدي معطفًا أكبر وأثقل من جسدي، عاجزٌ عن مواجهة هذا الشتاء، أشعر بالتجمُّد كما لو كنت ملتصقًا بجدارٍ صلبٍ من الثلج. هذه البلاد التي تسكنني أشبعتني مرارةً تغفو على قلبي قليلًا، وتعود شاحبة الوجه غاضبة، أحاول الهروب لكنني متجذرٌ في عروقها، تحيط بي من كل الاتجاهات، سكونها يثير حفيظتي، برودها المقزز الذي يسحق كبدي، كأنها خلقت في الشتاء وللشتاء.

ما الذي يحدث أيتها البلاد الغريبة العجيبة، هل حقًا هذا الذي يحدث الآن جاء منك، هل كل تلك المخيفات- التي نراها كل لحظة- تخرج منك وحدك؟ نحن الذين هرمنا في عشقك الأعمى، لماذا نترنح في منافي الدنيا، وكيف نستكين، كيف تنام أحشاؤنا هادئة، وكل هذه الدماء غافيةٌ على حضنك؟

متى تضحكين حقًا، نلمسك في أعماقنا، نتلمّس تلك الحقيقة التي تسير على خاصرتنا وحدنا، لم نرها يومًا ضاحكة، هذا زيف أسود، وهمٌ سينقشع ذات لحظة فارقة نكون نحن فيها آخر أنفاسك، وتكون خاصرتك محاطة بأرواحنا وحدنا. لم أجد معطف هذا الشتاء، لقد نحلت أكثر في عمقها القارس، كأنني أجرب أوزانًا مختلفة، لا أعود أنا،

ولا تعود تلك البقع التي أتركها كما كانت، أضع عليها حمولاتي، تمتصني وتعصر روحي هذه المنافي ولا أستكين. رأيتك الآن في عيون طفلٍ يحمله الرصيف، لم أتمالك نفسي، حملته بعيدًا عن تلك البقعة المفروشة بالموت القاسي.. كان الكل يحاولون فهم غرابة الموقف.

وحده الطفل يضحك وأنا أقبّل محيّاه، يتقافز على ذراعي وأنا أسرع كالمجنون، يضحك وأنا أبكي، لم أكن أعرف ماذا يحدث، أسير مسرعًا باكيًا، تتراءى لي في عينيه أحلام عمري، كوخ قلبي، ذلك البهاء الذي شربته من قلبك يا أمي، تلك الأعين التي رأيتها تصارع نفسها لحظة خلود صديقي الشهيد. آه أيتها البلاد المسلوبة، رأيت في عينيه نفسي التي حُرمت منها، ضياء ذهني، هدوء بالي، لم أعد أشعر بالقلق وأنا أسير على شوارع هذا المنفى المخيف.. كان يضحك، وأنا أبكي، كان معطفي وكنت معطفه أيضًا. سقطنا معًا فضحكت وصار يبكي، تطايرت من عينيه تلك الحياة التي وجدتها عابرة كومضة غاضبة، وبقي الشتاء ينهش عظامي ويبحث عن معطفه الحقيقي، ولم أجده، لم أجدني، لم أجدك، وجدت الشتاء في المنفى مفترشًا على كل الفصول.

حكاية طفل

كان يمنيًا متعَبًا، لم يدعني أقول شيئًا، ظل يسرد حكايته بوجع واضح.

"هذه حالتي، أرجوك لا تضع الكثير من الأسئلة، أنا نفسي لا أمتلك أي جواب غير الذي تشاهده الآن أمامك، طفلٌ لم يتعرف على طفولته بعد، أتذكر فقط لحظة واحدة، كان الجميع حول أمي وأنا أرفسها بقدمي المليئة بالدماء والمياه اللزجة، لحظة خروجي إلى الحياة أظنني وجدتني هناك فقط، بعدها صرت أعرف من أكون وكيف سأكون.. كان الجميع مبتهجين، أقصد الجيران وسكّان الحي الذي خرجت إليه من بطن أمي إلى هذا الذي نتجرعه الآن، كان البعض يرقصون ولم أكن حينها أعرف ماذا يعني هذا التقافز البشري البديع.. أمي كانت تبكي، لقد وخزت آهاتها قلبي الذي بالكاد كان ينبض، سمعتها تقول "الجحيم ينتظرك يا ولدي"، هذه ليست فرضية لقد فهمت بعد أن عرفت معاني الكلام معنى هذه الجملة، وعرفتني حينها، أمي رحلت بعد أن تقيأت بهذه الكلمات.. بعد لحظات كان الجميع يبعدونني عن جسد أمي، أخذوها بينما أنا ساكن أسمع تأوهات أمي التي لم أرضع سواها. وأشاهد الجميع يبلل بدموعه فراش أمي.. لقد كبرت وأنا في بطنها، كنت أرافقها وهي تتسكع في الشوارع وتفترش الأرصفة تحت أشعة الشمس، سمعتها كثيرًا متسولة ومتوسلة، تمد يدي من أحشائها وتقول للمارة: لم يأكل طفلي منذ أسبوع. كبرت سنوات على تلك البطن التي عاشت خاوية إلا منّي، وعشت فيها ذات القلق والخوف نفسه. عندما ودعتْ

أمي أبي الذي كان جنديًا في الجيش ذهب وهي تبكي، لم تكن تملك إلا الدموع ولم يكن يملك بوسعه سوى الذهاب لكي نبقى على قيد الحياة برغيفٍ يابس، وماء ملّوث، ولعنات نلمحها في أعين المارة وهي تبصق على حياتنا دون رحمة. كانت أمي تقول لأبي: سيكبر ولدك ونرتاح، سيخرج من بطني بعد أيام ويجب أن تكون بجواره، لكنه كان يرفض، يحدثها عن الفراش الذي يجب أن أكون عليه والمعطف الذي يجب أن يحملني والبقعة التي عليها نستقر بعض الوقت، قال: راتب شهر قد يساعدنا على هذا، لا يليق أن يأتي ولدنا إلى هذه الزاوية القبيحة في هذا الشارع اللعين.. ذهب والدي إلى الموت وظلت أمي ممسكة على قلبي، كانت تحمل بطنها بأيديها المشققة، تداريني بين الحين والآخر، تحكي لي عن مستقبلٍ جميل ينتظرنا بقدومي وعودة أبي، لكنها أجفلت، تجمدت، ارتعشت، شعرتُ بها وهي تتلوَّى على نفسها، تضرب على بطنها وتبكي، نحيبها كان يخنقني، وصوتها يخاطبني متشائمًا: "الجحيم ينتظرك يا ولدي"، كان ذلك لحظة وصول جثة والدي، وضعوها أمامها ونحن أمام مطعم المدينة.. وضعوا الدماء والأشلاء قرب تلك الخبزة اليابسة وذهبوا، وذهبت أمي بعد أن خرجتُ من بطنها لأعيش في الجحيم وحيدًا، ودون أم، ودون أب، ودون وطن، أبحثُ عن رغيف يابس يشعرني بأنني على قيد الحياة".

بقايا

أمي العزيزة:

لم أكن أنوي حمل كل هذا إليك. حاولت ألَّا أكتب ما سيؤلمك ويخيّب ظنونك الكثيرة، لكنني عجزت، تقطعت سواعدي وأنا أبحث عن تلك السجايا الجميلة.. حفرت كثيرًا، غصت في أعماق البحر، تسلقت شواهق الموت كي أسرق من ومضات السماء بسمة صافية وزاهية ولم أنجح.. حاولت مرات عديدة ولم أعد إلا بخيبةٍ كبيرة، وهيئة أزرى بها الغياب تجعلني أخرج من نفسي مثقلًا بهذه المنافي المضمَّخة بالدموع والحنين. لا أعرف ما عليَّ فعله الآن؟ لم أعد أقوى على كل هذا، لملمت بقايا إنسان من بقايا منافٍ وجئتك منهزمًا ألعن الحرب، ألعن حلمًا كان لي ولم أعد ألقاه، تلاشى مع أجساد الضحايا، تفسَّخ وسط صرخة طارت من قلبٍ مكسور؛ فكيف له أن يبقى؟ كيف أكون ذلك الذي تريدينه وأنا الذي حاصرَت حلمه لعنات الحرب وسكنت ذاته شظايا الأبدية.

أتيتكِ لأنني لم أجد دفئًا في المنافي البعيدة المفرغة من رائحة الحياة.. تلك النسمات التي عهدناها على تلال فصولنا الخضراء تاهت، وبقيت أنا، أنا الذي لم يبق منه إلا أنتِ. تقبَّليني حتى لا تنطفئ بقاياك، بقايا طفلك التائه الموجوع.

كابوس

أمي العزيزة:

أحاول أن أكتب بطريقة خالية من السواد والوجع ولم أوفّق في هكذا فعل يجعلنا معًا نضع أقدامنا على الرماد ونسير إلى أحلامنا باسمين. أنا غارقٌ في هذه الزاوية المظلمة أرسم ملامحَ تعبت من الهروب، أضع في كل حرف بحَّةً تخرج من أعماق القلب.

الإنسان هو طريقي الوحيد إلى الكتابة، لا أكتب إلا ما يصارعه ويعاصره من معارك الحياة، هذه مهمتي الوحيدة.. منذ فترة طويلة لم أخرج من هذه الدائرة، أعتكف في أعين المارة طويلًا، أتعلّق بنبرة صوتٍ حزينة سمعتها وأنا على الحافلة مع جمع من الغرباء.. أتسلق حكاية مؤلمة عاشها شابٌ يبحث عن الحياة، أهرب من شبح الجوع الذي يحاول أن يأكلني، أتلقى رصاصات الحرب بقلب مثقوب لم يعد يعرف نفسه.. أبحث عن الأمل المفقود في لعبة طفل يثيره فضولي العابر ويسعده، أنام منفيًا على أرصفة بلدان بانتظار المستقر الأخير.. هذه البلدان التي لا تعرف نعمة الوجود وقيمة البقاء، أحدقُ في تجاعيد النسوة المكافحات وهن في حالة الشرود الطويل، أحشر نفسي في أحشاء ذلك المتسول مبتور الحياة دون أن يدري، أصارع أوهامي التي هربت من رأس ذلك المجنون الطيب، أقيم في كوخ الصياد الأعمى، ألاعب نزق الرياح التائهة، لأنني

أخشى على كل إنسان من سقوط منزله الهش.. أواسي ذلك المثقف المظلوم الذي يحاكم نفسه كل يوم دون أن يقترف ذنبًا، أضع قلبي على عيون الطفولة المرمية في الشوارع حتى لا ترى مستقبلها الأكثر بؤسًا. أين أنا من هذا كله؟ لا أجد إجابة شافية، لكنني بين تلك التفاصيل أموت ببطء. لهذا لا أكتب إلا الإنسان، ليس ثمة خانة أخرى تحفل بقدومي؛ فقد غرقت في هذه الزوايا منذ قرون عديدة.

"شابٌ عشريني مثلك لا يليق به كل هذا السواد"، هكذا قالت لي الروائية اليمنية فكرية شحرة، ولم أجبها، اكتفيت بالرد على سؤالها الأول- كم عمرك يا حميد- الذي جاء في لحظة كنت فيها أنقّب في أعين العابرين عن بلدي.. كانت ردة فعلها مليئة بالصدمة وهي تقول: "قريبٌ من عُمْرِ ولدي"، وليتها لم تفعل، ليتها لم تضع شفقتها النبيلة كالملح في جرحٍ لا يزال يصر على اتساعه حتى أكاد أفقد بقعته الأولى، ولكنني أعرفه.

أعرف جيدًا سر هذه الحالة التي تجعلني أعيش صراعات داخلية بين الحين والحين، هاربًا من نفسي وطموحاتي، شاردًا كسجينٍ سيضعون عنقه بعد ساعات على المقصلة. لم تكن العزيزة فكرية الأولى ولن تكون الأخيرة.. صديق آخر طلب مني الكتابة عن العاطفة، الانسياب في هذه الصفحات بهذا الجانب الذي لم أجده إلا في ذلك النزيف الأول والكبير، بلدي وهويتي.

ليلة الأمس كنت في معركة حقيقية أنا ومجموعة من الجمهوريين على أرض المعركة.. سقط الأول شهيدًا، تلاه الثاني، والثالث، والرابع، كانت مليشيات الحوثي تحاصرنا من كل اتجاه، ولم يكن لدينا سوى القليل من الذخائر.. أضغط على الزناد دون فائدة وحيدًا أقاتل في الاتجاهات الأربعة، محاصرًا دون ذخائر، دون سلاح ودون مترس. ما أشد وقع هذا الكابوس الخبيث، الجبال مليئة بالقتلة، أصدقائي الذين لا أعرفهم ينزفون أمامي وأنا ملطخ بالعجز أقاوم نفوسًا خبيثة لا تعرف الرحمة.. شعرت بسيولٍ دافئة على جسدي، كانت دماءً ودموعًا وآهات، وقعت في قبضتهم أسير حرب، كانت أصواتهم ناعقةً بكل الكلمات المرعبة: اقتلوه، تخلصوا منه، اضربوه، لعنة الله عليك أيها المرتزق، وأنا على مترسي أبحث عن طلقة، عن حجر أقتل به نفسي قبل وصولهم ليفرغوا خزائن رصاصهم على جسدي الهزيل، ليسألني أحدهم قائلًا: ماذا تفعل هنا أيها الجبان؟ قلت: أبحث عن اليمن، هل توجد يمن؟ لم يرد، وضع في قلبي رصاصة لكنني لم أمت، لم أهرب، لم أنتزع نفسي من هذا الكابوس وأنا أبحث عن اليمن: هل توجد يمن؟

والآن وأنا بكامل قواي العقلية، خارج من ذلك المنام الذي يعيشه كل يمني حر، أدرك جيدًا لماذا أكتب بهذه الطريقة، ولمَ أنا في هذا العمر لا ألتفت إلا إلى اليمن، ولا أجدني إلا ملتصقًا بهموم اليمني وقهره وعجزه.

بقايا حياة

أمي العزيزة:

ماذا يمكن أن أقول وبلادي المخنوقة بالخذلان والجراح الراعفة، لا ذلك النسيم الذي عهدناه صغارًا عاد ولا ذلك الصباح الذي أشبعنا حنينًا وحرمانًا أطلَّ من جديد. تسير بي بلادي وكأني بها أسيرٌ أبديٌّ مشنوقٌ بحنينه وضياعه ومنفاه الشارد الأبكم.. تخرج من فوهة أوجاعها "تعز" الحالمة ولا أجد منها إلا شظايا ذلك البعد الطويل، تهرب من أرقها صنعاء المدائن كلّها ولا ألمس فيها إلا ذلك الشرود الكبير، تفتّش في قلبي "إب" عن نفسها ولا تجد إلا جثثًا متناثرة منسية وبقايا أشلاء لم يتعرف على هويتها أحد.. تعود إليَّ حانقة تلك العروس الخجولة المستكينة للوجع والفقر، التي بزغ فيها فؤاد النبي باللين والحكمة ولا تجد فيَّ إلا التهامي المنسي المصلوب في المنافي البعيدة.

ماذا أكتب على وجه الحياة والمرارة تسيل من عيون شبابنا المنسلخ عن نفسه، وكل المدن غارقة في عمق الظلام منكسرة مكسورة؟ لا بلادي عادت بلادي، ولا أنا عدت أنا.. أمشي في طرقات مظلمة وتتبعني تأوهات مدنٍ بأكملها.

منسيٌّ في إبط المنفى أفتش عن بقايا حياة لم تكن بقاياها الأولى من نصيبي، مسكونٌ بوطنٍ لم أكبر فيه إلا مشوهًا بالندوب، ولم أجده إلا قابضًا برماح الموت. لا أعرفني، ولا

تعرفني هذه الطرقات المكفهرة، أين أجدني؟ ذلك البهاء وتلك الضحكة التي كانت تقيم الحياة وتقاومها. لا تسعني أرض ولا تحملني صفحة، لا تسعفني حروف كنت قد كتبتها وأنا على شفرات الموت أسيرُ خائفًا مرعوبًا. لست أنا، هكذا يخيَّل لي الآن، وهكذا أصارع الأمس واللحظة والغد، يخشاني الأمس، يخيفني الغد، وبينهما أطارد وهمًا قريبًا بعيدًا، ولا شيء يستجد في هذه الرتابة الموغلة في القلب.. ألتصق بروح شهيدٍ يعز عليَّ فراقه، ينام في مقبرة تبدو ساكنةً وأحشاؤها مليئة بالضجيج.. أداري نفسي بالسير على أطرافها، لكنني على الزاوية الأخرى أمسك يدًا نازفة تركها صديقي الشهيد دون أن يلّفها بقلبي. هذا كله سراب، إلا وجهي المسكون بتفاصيل الراحلين الذين أحبهم، ولا أزال أبحث في ذلك الإبط القبيح عني.. هل سأجدني دون بلادي!؟

عذابات

أمي العزيزة:

ما الذي جعلني أتكوَّم بهذا القدر على صدر بلادي، هل كان عليَّ أن أموت محاربًا في أحشاء الشهداء، هل كان عليَّ أن أفترش المنافي متوسدًا مقابر الأبطال ونبضاتهم، هل كان لا بد من عذابات هذه السنوات الطويلة حتى أشعر باليتم يتوغل في قلبي وأنا أعيش خائفًا قلقًا مصابًا بالحنين في مدنٍ تارة تجهلني وتشفق عليَّ بطريقة لا أحبها؟

تسألني الغيمات عن عمري فلا أجد جوابًا، تفتّش عني طفولتي التي اغتالها سفاح متمرس ولا تجد إلا دماء وقبورًا وأشلاء وملامح بلادي. ماذا أفتقد أكثر من نفسي؟ فلسفة أخرى تحيلني إلى حيث لا أجدني، هل أفتقدكِ بالقدر الذي أفتقد به بلادي، هل أفتقد بلادي بذلك القدر نفسه، ذلك المكان الذي هيأته لي دمعة أم صادقة تسكبها كل يوم كأنها على حافة اللحد الصغير؟ بلغت من الشوق عتيًا، ولا أزال أضطرم بأشواقٍ أخرى لا تعرف قبلة لها سوى ذلك المكان الذي أخشى بأنني لن أسجد عليه مرة أخرى. أنا دون بلادي قشة متعبة تأخذها الرياح صوب المجهول.. الآن وقد شيّعتُ رفاتي الأول ونعشي الأخير إلى ماذا أنظر، إلى طفلٍ يموت جوعًا في الحُديدة، إلى صبية ظلّت تحمل حياة منزلها المتساقط لتذوب أنفاسها على رصيف تعز بطلقة حاقدة.. إلى صديقي

الذي وضع يده على صدري وهو يتأوه من شظايا رحيله الأخير ويقول باسمًا: البقية عليكم. ماذا عليَّ فعله تجاه هذا كله؟

أتكوم بضلوعي المكسّرة على قلوب شلّتها الظروف دون نبضة كاملة، أنكمش كمنسيٍّ في الزوايا البعيدة حيث لا شيء إلا السكون الموحش، وماذا لي من هذا كله وبلادي تتهاوى كل يوم على أيادٍ لم تحّبها يومًا لأنها لا تعرف معنى الوطن.. وهل ستمنحني بلادي قبرًا يأويني من كل هذا التشرد، قبرًا تنمو عليه طفولتي من جديد، لأعيش دافئًا وهانئًا مستريحًا من كل هذه العذابات!؟

لماذا أنا في هذا كله يا عزيزتي؟ وحدي أعيش الحرب، الأسر، الاختطاف، الحرمان، الغربة، المنافي، وحياة المتسولين التي يفرشونها على الأرصفة بثن زهيد. أفتّش عن نفسي في أعين القتلى والجرحى والمعتقلين والمشردين، لماذا أنا وحدي المعني بلقمة العابر، وتأوه السائل، وحزن الساكن، لماذا عليّ كل هذا وحدي؟!

ماذا لو ؟!

أمي العزيزة:

عندما أنفرد بنفسي أضعها على الجانب الآخر، ويتوسم عقلي القاضي العادل، أشفق على حياة تتسرب من بين أصابعي. لم أرغب أن يحدث كل هذا، ولم أخطط لمستقبل يقودني في منتصف العشرينيات إلى هوّة سحيقة من الحيرة والخوف الغامض.. لم أشعر يومًا بالحب ولم تتسلق عقلي أنثى ذكية جديرة بإخراجي من هذه الحالة، عشت النضوج مبكرًا، وهذا تحديدًا قادني إلى العزوف عن أية علاقة خارجة عن الحسابات الدقيقة. أنا الذي أضع دائمًا علامة استفهام مع كل خطوة، وكل صدفة وكل تجربة تمتد أمامي كطريق إجباري لا يمكن تجاوزه. أمارس دور الاقتصادي المعتق الذي لا يؤمن إلا بالأرقام، وهذا مهلك جدًا.. أسلخ نفسي عن ذهني، أعيش صراعات الوجود وأحاول الإجابة على الأسئلة المتزاحمة في رأسي.. هذه الحياة ومتطلباتها، وهذه المراحل ومتاعبها، هذه الأرصفة التي تنام عليها أوجاع البشر وتشعل فيها أجسادهم، هذه الحروب وهذه التفاصيل الخبيثة، هذه الأوطان وهذه المنافي الكئيبة، الطبيعة التي تتراقص تحت أقدامنا وتسير متقلّبة فوق رؤوسنا، الصيحات الغائرة في أعماق القلب، والتشنجات المكتومة في أحشاء الروح، هذه الأفكار المتصارعة، والخيول الجامحة في الذات البشرية، هذه العواطف التي تسلب الإنسان

قوته، والعقول التي تحيله إلى خشبة مؤذية، وفي دوامة كل هذه الصيحات، تتكون شخصية أخرى، روح مختلفة، قلب يرفض هذه المسارات المتبلّدة، لأجدني مرة أخرى في مواجهة السؤال الأكثر إلحاحًا: ماذا لو كنت في الجانب الآخر، دون حسابات دقيقة ومنطق الأرقام الصارمة، ماذا لو كنت شخصًا آخر يا عزيزتي، هل كان لهذا كله أن يحدث؟!

وإذا سألت نفسي الآن: كيف حدث كل ذلك، لن أجد إلا دمًا مسفوحًا ودمعًا مهدورًا، وعمرًا تسرّب من أوراق التقويم؛ لأكون ما أنا عليه الآن من بؤسٍ وشقاء، غريبًا دون هوية، منفيًا دون منفى، أصاحب نفسي التي تكرهني، وذكرياتي التي أخشى عليها من الفقد وتخشى أن أمارس استحضارها.

حكايات

أمي العزيزة:

لم أفكر بأن أصير كاتبًا.. عشت طفولتي كبقية الأطفال بين كرة القدم والألعاب التقليدية.. مرافقتي الدائمة لوالدي كانت تجعلني مختلفًا عن رفاق طفولتي، كانت التجارب التي تتقاطر من أحاديث أصدقاء أبي تأخذ مداركي إلى دوائر واسعة أفسّر فيها الأشياء بهواي الطفولي دون أن يدري أحد ماذا يجول في داخلي، لم أترك همزًا أو همسًا مشفّرًا دون أن أختزنه في ذهني وأسرح به باحثًا عن القواسم المشتركة التي تربطها بشكل متناسق يجعلها أكثر قبولًا وتصديقًا.

ذات يوم ألمَحت لأبي بمعرفتي خيوط حكاية معيّنة؛ فلم يكن منه إلا الدهشة التي أبداها بهذا الإدراك المبّكر، وقال لي: أشفق عليك من هذا التعمّق الذي لا يقود إلا إلى الحقائق التي هي دائمًا متعبة يا ولدي..

أنا مسكون بهذه الدهشة، تغلّفني ذكريات كلّما ظننتها شردت مع الرياح ألقاني أجري خلف بقاياها التي تقودني إلى بقاياها الأخرى. لم أفكر مطلقًا بالكتابة. في طفولتي كنت أنسج في خيالي حكايات كانت تجارب صبيانية وأخرجها للآخرين بطرق عديدة، تشبه ما يخبئونه في دواخلهم، لكنني لم أكن أختنق إذا لم أفعل، الآن أشعر بالاختناق حين لا أكتب، تُمسكني الحروف من حنجرتي، تربض على قلبي،

وتعض على أصابعي، ولا فكاك إلا بنزيف كل هذا على الورق الذي أملأه بصور كثيرة لم أكن أعلم بوجودها في ذاكرتي من قبل، فأسأل نفسي: ماذا أكتب لهؤلاء الذين أشبعتهم حروفي ضجرًا وملالًا، لم أحمل إليهم إلا جثثًا، وأنين مشردين، وصيحات أطفال سرقتهم المتاهات؟ ماذا سأقول في حروف تقاسمتها المنافي وتاهت عن طرق السكينة والطمأنينة؟

التمرّس على الكتابة لعنة حقيقية لن يدركها الكاتب الأحمق إلا في لحظات اختناقه وموته البطيء.

أنا من ذلك النوع الذي يعجز عن كتابة الأشياء المحددة، المطلوبة، التي تستوجب تفكيرًا كثيرًا وجهدًا مرتّبًا، وأظن أنني لن أنجز كتابة رواية ما حييت.

أحتشد؛ فأندفع، أكتب أشياء بعيدة جدًا، أسابق في عمق النص حروفًا طائرة وكلمات شاردة ومشاعر أحاول تجسيدها، فأكتب أشياء كنت أجهلها تمامًا.

كل أحداث حياتي بحاجة إلى كتابة، الطفل الذي كنته وأنا أختبئ في حدقات عينيك بحثًا عن الأمان.. المراهق الذي عشته منفيًا من نزوات المراهق الحقيقي؛ لأشيخ على صدر العشرينيات وقد أكلتني سنوات العمر القليلة.

حيوات عشتها دفعة واحدة، الحرب والجوع والخوف والقصف والغربة والعزلة والوحدة والمنافي.. صادفتُ الموت على طرقات كثيرة، ووجدت حيوات الآخرين بعيدة عن الذي أعيشه في هذه العزلة.

أخاف أن ينتهي بي المطاف متسولًا حكايات الغير، أن أموت قبل أن أنام ليلة واحدة على صفحات كتاب تقرأه الأرواح التي تشبهني.

أخاف أن ترحلي عن الحياة دون أن تقبّلي الإهداء الذي سأضعه على أول صفحة من كتابي. هذه الأشياء الملّحة والحكايات المفتوحة أمامي، الحيوات التي تستحق أن تُكتب، لا أزال أبحث عن أول الخيط الذي سيقودني إلى خاتمة أصوغُ فيها نهايتي التي أحبها.

صباحات تائهة

أمي العزيزة:

هذا الليل لا يشبهني، تقاسيم وجهه وتجاعيده السوداء لا تشبهني أيضًا، قلبي الذي خلق للحب لا يطيق لحظة واحدة هذا السكون المخيف. أتدحرج بين فكرة وأخرى لأسرق ومضة صباح شاردة تشعرني قليلًا بالوجود، أسير دون عصا تُعين جسدي على تفقد الطرقات، لا أدري أين أقف الآن، وبالكاد أتذكر متى وقفت آخر مرة.

أبحث عن الصباح، عن ضوء تلاشى على وقع خطواتي المرتعشة. هل كان حقًا هنا؟ لا أعرف.

أغرق في حيرة اللحظة حتى تكاد عيناي تضيع في شتاتها وتقلباتها، تمنيتك في الطرف الآخر ولم يكن إلا الصمت ومتاهات أخرى مظلمة وقاحلة تحثني على السير، ومع هذا لم أتوقف. أشد على أزر قلبي وأسير خائفًا وقلقًا، تمنيت لو كنتِ أنتِ الصباح، لو أن وجهك يسرقني من عتمة هذا الوجود، كي أستريح من البحث في منفاي عن الصباح، عنك، عن تلك السنين المكتظة بحنانك.

سألت طيفًا عابرًا عنك، كان هذا جنونًا آخر، لم يرد، لم يقف، لم يشفع لقدمي وهي تجر أعوامًا من الحيرة والغرق.. ليتك هنا، أهتدي بك إلى نفسي، إلى عنفواني الطائش الذي صار نسيًا منسيا. كل الطرقات في هذا الليل مليئة

بالفوضى، أتحسس الموت وأنا عالقٌ على أطراف رقعة ملطخة بالدماء. كيف لي أن أتركك هناك في البعيد متغافلًا عن نتائج كهذه، كان عليَّ البقاء قليلًا. صدقيني بأنني لا على أجلد ذاتي بالطريقة التي تؤذيك بقدر ما أخفف من ثقلي بهذه الفرضية الصماء. تداعبني نسمات شاردة عن نفسها، تتخبط في وجهي كعفاريت رعناء منفية ومنسية، وأنا أسير إليكِ حيث تسكن أصوات الحياة، وتزعق صيحات الموتى بعنف. هل يرقص الصباح في عتمة مدينتنا يا عزيزتي؟

آه من منفاي ومن حربي ومن هذا البعاد، آهات تطاردها آهات.

تغريبة اليمني

أمي العزيزة:

ما سأضعه هنا، قصة عاشها اليمني قبل خمسين عامًا، ويعيشها اليوم، وأخشى أن يعيشها في المستقبل، أليست تغريبة اليمني شبيهة بالتغريبة الفلسطينية؟

لم أتعرف عليه بشكل جيد حين صادفته، فقط التقطت سلامه العابر من بين رذاذ المطر دون أن أحتفظ بسحنته المتجعدة في ذاكرتي.

كانت الأجواء مظلمة، والسماء تسقي الأرض بكرم باذخ.. أنا يمني في بلادٍ بعيدة، وهو مثلي أيضًا.

هكذا عرفته، بعد أن مضى وقت طويل وأنا في صراع مع ذاكرتي، كنت أظن أنني في حالة هلوسة، هل حقًا كان يمنيًا، لهجته، طريقة مشيه، خوفه وقلقه والأشياء المفقودة في ملامحه، هل "السلام عليكم" خرجت من فمه يمنية حقًا؟!

منذ خمسين عامًا أعيش في هذه البلاد وحيدًا، لا أعيل ولا أُعال، حملت نفسي ذات يوم أسود، قطعت الجبال والبحار والصحارى الطويلة حتى وصلت إلى هنا، لم أجد يمنيًا واحدًا، ولم يدلني أحدٌ على هذه الجزيرة، لقد وضعت نفسي في كف الأقدار وسلمتها حياتي كلها، وهي التي قادتني إلى هنا.

صارت لي لغة مختلفة، بيئة مختلفة، حياة مختلفة، وثقافة مختلفة أيضًا، كيف وأنا المعجون بهذا كله لأكثر من

خمسين عامًا أن أنسى هذه اللهجة اليمنية التي طالما سمعتها طفلًا والآن أسمعها وأنا على عكاز المنفى أبحث عن هجعتي الأخيرة؟

هل كان حقًا يمنيًا هذا الغريب الذي تغطي ملامحه قطرات الماء، وتحيطه بالقلق مساءات هذه الجزيرة الساكنة؟

لم أنم ليلتها، تقلّبت على خمسين عامًا من الهروب والضياع، استحضرت أمي وأبي، أخي الذي قُتل في مشاكل أسرية، أختي التي فُرض عليها زوج لعين، تذكرت اللحظات التي هربت فيها وأنا مضرج بالدماء، لم أكن أنا القاتل، ولم يكن الضحية عدوًا لي، تشابكت الأقدار عليَّ فجأة ولم يكن أمامي سوى خيار الهروب.

قالتها أمي بصوتها المهزوز: اهرب يا سالم، اذهب وعين الله ترعاك. أبي لم يقل شيئًا، كان يعرف بأنني لم أقتل لكنه لا يستطيع الدفاع عني، كان ضعيفًا جدًا، وكنت خائفًا. والآن لا شيء، أنا في الأقاصي البعيدة دون خارطة تأخذني إليهما، وهما حيث لا أعلم، بيننا خمسون عامًا من الضياع والاغتراب والبعد المرير.

هذا اليمني الغريب أوقظ فيَّ الإنسان الهارب الضائع المقتول، هل قالها حقًا باللهجة اليمنية "السلام عليكم"؟ كيف أستعيده من جديد، أين سأجده مرة أخرى، كنت في حالة إغماء، سقطتُ في هوّة عميقة وأنا أتلقى سلامه اليمني في الزحام الصاخب، تجمدت مكاني، الأضواء غارت

في الزوايا البعيدة والأصوات استحالت صدى مزعجًا، وأنا وحدي أستجمع أصوات يمنيتي، أحشد نبرات أمي ونداءات أبي، أتكوم في حنجرة قريتي التي خنقتني قبل خمسين عامًا وتخنقني الآن من جديد.

هل كان يمنيًا حقًا، هل كان أبي، أخي المقتول، أمي التي دفعتني للهرب، يا الله، هل صارت اليمن الآن مثلي هاربة ضائعة منفية؟

رحم الله الشاعر عبدالله البردوني الذي جسد مأساتنا في قصائد كثيرة، يشبه فيها اليمني ما قاله في قصيدة "غريبان وكانا هما البلد".

عرفته يمنيًا في تلفّته
خوفٌ وعيناه تاريخٌ من الرَّمَدِ
من خضرة القات في عينيه أسئلةٌ
صُفرٌ تبوح كعودٍ نصف مُتّقِدِ
رأيت نخل (المكلا) في ملامحه
شمّيت عَنْبَ (الحشا) في جيده الغَيِدِ
من أين يا ابني؟ ولا يرنو، وأسألُه
أدنو قليلًا: صباح الخير يا ولدي
ضمّيتُه ملء صدري إنّه وطني
يبقى اشتياقي، وذوبي الآن يا كَبِدي.

صديقي أيلول

أمي العزيزة:

أيلول بطل يمني وضع لي هذه الرسالة، ثم أخذني إلى عالمه العظيم. قد تبكيك هذه السردية قليلًا لكنّها ملحمة من الشخصية اليمنية التي ننتمي جميعًا إليها:

"مرحبًا..

كيف حالك حميد؟

لا أخفيك بأنني أتابعك منذ بداية الأحداث، تغطيتك للمعارك في الضالع، إطلالتك من على جبال مريس وخلفك جموع من الأبطال، حديثك الدائم عن الجمهورية والوحدة اليمنية، رفضك المساومة بالسيادة الوطنية وإصرارك على التمسك بهوية بلادنا وملامح شعبنا. أنا أيلول، هكذا أسماني والدي الذي استشهد في عملية إرهابية قبل عشرة أعوام، ولا شك بأنك تعرف جيدًا دلالات هذا الاسم الذي اختاره والدي الشهيد وجعلني ملتصقًا بكل مبادئه وقيمه.. عمري الآن خمسة وثلاثون عامًا، نشأت على حب البلاد، فأبي كما أخبرتك رحل شهيدًا ولم يترك لنا فرصة أخرى خارج الدائرة الوطنية، لهذا أنا أعيش بعلّة جسدية وضعتها ميليشات الحوثي على جانبي الأيمن، لكنني لن أحدثك عنها الآن، أريد فقط أن نلتقي؛ فأنا منذ ليلة أمس في الخرطوم، سافرت من أجل شهادة الماجستير، ومن الجميل أن نكون في مدينة واحدة حتى

نلتقي وجهًا لوجه، سأضع رقمي وعنواني هنا وأتمنى أن يكون لي متسع من وقتك".

تحياتي.

وصلتني هذه الرسالة في وقت متأخر من الليل، كنت حينها منشغلًا بامتحان الصباح الذي ألزمني بالمكوث طويلًا على الورق. أيلول يضع هذه الرسالة في خانة الماسنجر ودون أن ينتظر ردًا مني يغلق الجوال، قرأتها أكثر من مرة، وفي كل مرة كنت أتخيل هذه العلّة التي وضعها التاريخ وسامًا مجيدًا على جسده، هل عيناه، قدماه، سواعده القوية؟ لم أصل إلى نتيجة معينة، لكنني وجدت اليمن الكبير في سطور قليلة، والده الشهيد، اسمه العظيم، وسام جروحه التي لم تمنعه من الذهاب إلى الخارج من أجل الدراسة، هذه النشوة التي يحدثني بها عن الجمهورية والوحدة والسيادة الوطنية، الاعتزاز بالهوية والملامح اليمنية، طريقته المهذّبة التي فاتحني بها من أجل لقاء عابر.

وضعت ردًا سريعًا أسفل رسالته:

البطل أيلول، سعدت كثيرًا بدعوتك الكريمة التي دون شك سأنال بها شرف الجلوس مع إنسان عظيم يحمل اليمن أرضًا وإنسانًا بهذا التألق المهيب، سأتصل بك ونحدد موعد ومكان اللقاء، وأتمنى أن يكون في أقرب وقت ممكن..

لم يتسلّم رسالتي، اتصلت به مرارًا دون فائدة، كان جواله مغلقًا، وكانت خيوط الفضول تلفُّني من كل اتجاه.. أيلول

يطل عليَّ من أعلى قمم نهم، من ردفان، من مريس البيضاء، ينفث في ملامحي حبات رمال مأرب والجوف، ها أنذا الآن مع موعد حقيقي مع ذاكرتي وروحي وحنيني الذي يأكلني كل يوم.

خرجت من قاعة الامتحانات فوجدت أربع مكالمات منه، كانت متفاوتة الزمن، تحمل اسم أيلول المجيد، اتصلت به فردّ بصوت جهوري: مرحبًا أخي حميد، كيف حالك، أعذرني ما زلت أحاول التعافي من بعض جروحي، لهذا نمت مبكّرًا بسبب أعراض العلاج، هل سنلتقي اليوم؟

نعم يا أيلول.. لا عليك، سآتيك حالًا إلى العنوان المدون في رسالتك.

لم نقل شيئًا، تركْنا وشيش المكالمة يأخذ نصيبه من هذه اللهفة المتبادلة، ذهبت إليه بمجموعة من الكتب: مذكرات العزي صالح- خطر الإمامة على الوحدة اليمنية- رواية الرهينة، اقتنيت من مكتبتي هذه المجموعة التي تلتصق كليًا بأيلول، مع معرفتي بأن من يحمل هذا الاسم ويأتي من الجبهات للشهادة الأكاديمية لا يمكن أن تفوته هذه العناوين والمضامين، وحملت أيضًا السنيدار والزبيري ودماج في جعبتي من أجل أن أكون لائقًا.

دقائق معدودة تفصلني عن لقاء أيلول المجيد، يسكن في جزيرة توتي السودانية مع أسرته التي تساعده كثيرًا، هذه أعظم دعوة تلقيتها في حياتي، هكذا كنت أحدث نفسي،

رجل من لهيب المعارك التي أعيش إيمانها منذ نعومة أظافري يحمل اسم أيلول، من صلب شهيد، ويأتي بوجعه من أجل الدراسة، ومع كل هذه العظمة يدعوني بعد ساعات من قدومه!

مشاعر متزاحمة لم تفارقني منذ الخطوة الأولى، حتى رأيته واقفًا على عتبة منزله المتواضع، بيت من الطين يقف على ضفاف النيل، لمحته من بعيد، يمنيًا أصيلًا، شحوب وجهه وقامته، جبهته السمراء، هيئته التي لا تقودك إلا إلى اليمن الكبير، هذا هو أيلول، بيدٍ واحدة ونظارة سوداء، بتلويحة يده اليسرى افترش أمامي بساط الجمهورية على وقع خطواتي إليه، عانقته بحرارة، أحاطني بيده الوحيدة وكأنني في حضن الوطن، لم أقل شيئًا، كان صوته أقوى من فرقعات الطبيعة وهدير النهر وحفيف الأشجار التي تحيط المكان.

شكرًا أستاذ أيلول على الدعوة الكريمة، لا أعرف كيف أصف لك مشاعري التي خُلقت على وقع رسالتك ونمت بسرعة مذهلة مع كل ثانية عشتها حتى وصلت إلى هنا، أنا سعيد جدًا بهذا كله أيلول المجيد.

لم يترك لي فرصة للتعبير عن مشاعري، دخل في صلب الموضوع، تحدث بحرارة عن حياته وقيمه وعظمة مراحله التي خاضها بدم قلبه ومياه روحه:

"تعرف يا حميد بأننا نعيش اليوم معركة أخرى من حرب يخوضونها اليمنيون منذ عشرات الأعوام، أجدادنا

كانوا في مقدمة الصفوف، آباؤنا أيضًا وضعوا حياتهم فداء للأهداف العظيمة التي تليق باليمني الأصيل، أنا أمامك الآن أقف مجسّدًا مأساة اليمني عبر كل العصور، لكنني أيضًا أحاول تجسيد صلابته وقوته وعظمة أحلامه، فقدت ساعدي في معركة تحرير مأرب، كنت حينها خريج كلية الآداب جامعة صنعاء، قرأت الكثير حتى هذه المجموعة التي تحملها، أكلتها صبيًا والآن يأكلها أطفالي حتى يسيرون على النهج العظيم، كانت البدايات الأولى للمقاومة الشعبية في اليمن الكبير اختبارًا حقيقيًا لما غرسه والدي في أعماقي، التحقت بالمقاومة دون أن أحتفل بالتخرج، أخذت أوراقي وسلاحي ولم أفارق المتارس حتى أرغمت على ذلك، عدت إلى الجبهات بيد واحدة، كنت أنشد أشعار البردوني والزبيري وصالح سحلول، وأعمل من أجل توعية الأبطال وترسيخ فكرة الجمهورية في أعماقهم.. وفي الجمهورية كما تعرف حرية الإنسان وكرامته، وهذا المبدأ الأعظم الذي عملت على ترسيخه في معركتي الجديدة، أقصد معركة اليد الواحدة والعقل المشتعل. وفي إحدى الليالي ونحن في المتارس المتقدمة تعرضنا لهجوم مفاجئ من مليشيات الحوثي، وكنت باليد الواحدة أحمل كل اليمنيين، أوجاعهم وقهرهم وحرمانهم من الحياة الكريمة، كانت أعظم معركة خضتها في حياتي، استحضرت كل الأشياء المرتبطة بالذات اليمنية، أبي والنعمان وعبدالمغني والزبيري والثلايا وكل الأبطال الخالدين، كانت

كل الجبهات مشتعلة بمختلف الأسلحة خضناها وبنفس يمني واحد، عدد من الشهداء افترشوا جواري ومثلهم الجرحى، أنا أيضًا سكنت شظية طائشة عيني اليسرى، لكننا مع هذه التضحيات كسرنا جموع الحوثي وأحلنا أعدادًا كبيرة منهم إلى أشلاء مجهولة الهوية، وكما ترى أقف أمامك الآن بيدٍ واحدة وعين واحدة أيضًا، ما زلت أستخدم بعض الأدوية من أجل عيني التي يسيل منها الماء، جئت إلى السودان من أجل أن أستمر في هذه المعركة، هذه معركتي ومعركة أجدادي وستكون لأحفادي، سأظل أعيشها مخلّفًا أولادًا يحملون الإيمان نفسه. عندما مُنعت من الجبهة بعد الإصابة الثانية قررت القدوم إلى السودان وتحضير الماجستير، لديَّ عنوان البحث لكنني أريد مساعدتك في هذا، مساعدتك معنويًا على وجه الخصوص، لديَّ الكثير من تفاصيل البحث المتعلّقة بالإنسان اليمني وقيمته العظيمة، حروبه ومعاركه، تضحياته وتاريخه وملامح مستقبله التي ستشرق ولو على مياه أعيننا. أعرف بأن هذا المستقبل بعيد جدًا، ولن تعيشه أنت ولا أنا، وربما أولادنا، لكنني أؤمن بأن هذه البذور التي نسقيها بالدم ستؤتي ثمارها على صدر اليمن ولو بعد حين. هل تظن يا حميد بأن من يقاتل اليوم في جبهات الجمهورية يعتقد بأنه سيعيش الحياة التي يريدها؟ لا.. الكل يدرك بأنه جسر ستسير عليه أجيال أخرى إلى مجدها، لهذا الأمر تحديدًا لا يمكن أن نسلّم قوانا لليأس أو نهزم في وسط كل المتغيرات".

لم يكن أيلول الذي يحدثني، كانت كتائب من الأبطال، جموع من الرجال تحشد قواها في قلبي، جبال متلاصقة تتراقص في أعماق روحي، لم يكن أيلول الثلاثيني مبتور اليد ودامع العين، كان أيلول القيمة العظيمة والمبادئ الحقيقية التي تتكسّر عليها كل الأساطير الزائفة، كانت يده اليمنى في مسافات أخرى مفترشة جسر العبور إلى المجد والحياة الكريمة، وكنت في محرابه صغيرًا هزيلًا جاهلًا لا أعرف من أين أمسك خيوط مجده.. لم أجد كلامًا يجعلني شريكًا في هذه السردية العظيمة، وما كان أضعفني عندما سألته: ما الذي تريده مني يا أيلول؟

فرد مبتسمًا:

أن تبقى يمنيًا حقيقيًا وللأبد.

قالوا عن الكتاب والكاتب

حميد الرقيمي يُعبِّر في -حنين مبعثر- عبر حبه لأمه إلى حب الإنسانية والوجود

الغربي عمران

عمل يدعو القارئ للتأمل نص بعد آخر مندهشا، «حنين مبعثر» تتجلى من خلاله قدرة الكاتب على اجتراح فن الرسائل باقتدار فنان، هو لا ينتظر من أحد أن يرد على رسالته الأولى، ليكتب الثانية، ولم نجد ردا حتى بعد أن أكمل كتابة الخمسة والثلاثين رسالة، التي ضمنها في إصدار تجاوز المائة والثلاثين صفحة، صادر عن دار عناوين في القاهرة أواخر ٢٠٢١. ليظل السؤال أين نجد الردود على تلك النصوص، ومتى. الغلاف صورة لامرأة تقف وقد حركت الريح أطراف ثوبها الأسود، مغمضة العينين، راسمة على ملامح وجهها ابتسامة مغمسة بالرضا والحبور، كمن تستنشق رائحة وجه طفل احتضنته، تلامس وجنتيه وجهها، ساعدها الأيمن يحتضن ظهرة وبالأخر ساقيه كما لو أنها في حالة نشوة وانصهار روحيهما معا، بينما الخلفية لجدار بيت ريفي، حجاره غير مشذبه، ظهر حيز من بابه خلف المرأة. الصورة بالأبيض والأسود ما يوحي بالقدم، تبوح تفاصيل تلك الصورة بنصوص «حنين مبعثر» وتلك العلاقة بين الوليد وأمه ، التي تتجاوز الحب المألوف بين الكائنات. وأنا أقراء هذه النصوص سعدت بما منحتني من مشاعر، وكأن الكاتب كتبها بمداد قلبه، معبرا عن قلوب قرائه.

«أمي..

ثلاثة أحرف، كأن كل حرف تسبيحة مجنحة، هتاف صاعد إلى السماء، ترنيمة متبتلة، وجع دام، عزف دامع، نزف مديد، وحنين مبعثر.. هذا أنا، أعود إليكِ من اللامكان، شجنا ضارعا أفتش عني وعن عالم كوجهك وقلبك.. أودع كل هذا الشجن بين يديك كي لا ينفرط عقد الأبجدية، فتقبليه خالصا لقلبك الكريم. ابنك: حميد». كانت تلك عتبة في مقام الإهداء. حين أكملت قراءة تلك النصوص، وجدت أنها ليست رسائل تنتظر ردود، بل هي ردود مطولة لرسالة كتبتها أمه تلك الرسالة المتمثلة به، وبوجوده. وما منحته من رعاية وحنان حتى أصبح شابا يتعمد على نفسه، ولا تزال تكتبه كنص. «إليك فقط .

أمي العزيزة: أقف الآن في مواجهة قرار مصيري كل ما يعتريني من حنين وشوق وعذابات هذا البعد المرير. سأكتب إليك وحدك، لن أخاطب أحد دونك ولن تكون هذه الرسائل إلا جسراً يحملني إليك. مرات سنوات ثقيلة منذ آخر مرة كنت فيها مع نفسي، معك، والآن أنا وحيد من كل شيء، تفصلنا عني وعنك تراكمات مثقلة بالآهات المنزوعة من أعماق القلب. تعرفين جيداً من أنا، حميد الطفل المشاغبة الذي أتعبك منذ كل هذه التجارب؟. بعد كل هذه المراحل التي تجاوزتها وحدي وكنت فيها أحارب على الجهات الأربعة كي لا أسقط؟ لا إجابات واضحة لكل

هذه التساؤلات، ولكنني لا أزال أقاوم، أسير على أمواج من السواد والأشلاء والذكريات الجميلة.. هذه هو قدرنا يا عزيزتي، قدري وهذا الجيل الذي كتبا عليه مواجهة الموت بالموت، على جبال المعارك المشتعلة وفي ضياع الصحاري الواسعة، وعلى ضفاف البحار التي تلتهم الغرباء دون رحمة، وهذه المنافي التي لا تطيق خطواتنا عليها. هذا هو اليمني يا عزيزتي، هارب من الموت إلى الموت، يفر بجلده من لدغات الجوع إلى بلدان كئيبة، يهرب من ضجيج الموت المصاعد حالما بالذهاب إلى أوربا في هجرة غير شرعية، ليجد نفسه بين مخالب تجار البشر، أو على مركب يحترق بمن فيه على بعد أميال من شواطئ البحر التي توهمه بالنجاة من الموت. يحاصرني الموت حتى ونحن نبحر على قارب السعادة العابرة، تتسرب حيواتنا كل يوم من بين أيدينا، وهذا العمر الراعف لا يعرف ضماده أبدا، وأنا جزء لا يتجزأ من هذا كله، أنا واحدا من جيل كامل يحترق في ريعان شبابه دون أن يتلمس طريقة الأول إلى حياة حقيقية، لهذا سأكتب إليك أكثر سأتوسل الشاب المتوسد بحلمه، والفقير بجوعة والمذبوح بحريته والمصلوب بكرامته، سأجسد المنفى في عمره الطويل، والباحث عن حبال نجاته من وسط تهب عليه الرياح بالأنين العاصف والآهات المكبوتة، وستكونين أم هؤلاء كلهم، ستكونين قبلة حنينهم وشوقهم وبحرهم المتدفق بآلامهم وآملاهم». تلك أولى نصوص الكاتب، أو الجواب الأول إلى أمه.

أظهر الكاتب من نص إلى آخر عاطفة صادقة، تشعر القارئ بأنه كتبها على لسان قراءه، أو تعبيرا عنهم. ليجد القارئ أن عاطفته تتشظى من نص إلى تالي ليتجاوز إحساسه من حب الأم إلى الوطن، رويدا رويدا تتحول نصوص الرقيمي إلى منجاة للكائنات والوجود أجمع. أحرف ترى بالقلب وتتلمس بالنظر. لا يمكن أن يكون ذلك الصدق الفني الجياش إلى لكائن خلاق محب معطاء، يجيد مزج اللغة بروحه السمحاء، ليصيغ كائنات شفافة ذا معان ودلالات سامية ، وكأن الأم لا تتلخص في ذلك الكائن الإنساني، بل تتجاوز لأن تكون كل الوجود. ننظر حولنا إلى الأشجار والجبال والوديان والسماء، لنراها تتجلى في أمهاتنا، نستنشق رائحتها، ونلمس بهاء وجودها في كل شيء من حولنا. «...كيف حالك حميد، لا أخفيك بأنني أتابعك منذ بداية الأحداث، تغطيتك للمعارك في الضالع، إطلالتك من على جبال مريس وخلفك جموع من الأبطال، حديثك الدائم عن الجمهورية والوحدة، رفضك المسومة بالسيادة الوطنية وإصرارك التمسك بهوية بلادنا وملامح شعبنا. أنا أيلول ، هكذا أسماني والدي الذي استشهد في عملية إرهابية قبل عشر سنوات، ولا شك بأنك نعرف جيدا دلالات هذا الاسم الذي اختاره والدي الشهيد وجعلني ملتصقا بكل مبادئه وقيمه.....». من رسالة معبرة وصلت للكاتب ليبعثها لأمه ضمن رسالة مطولة في حب الوطن. شكرا حميد الرقيمي ، من عبرت عن قلوبنا بجمال فاتن

وصادق. نستبشر بك أديبا من طينة الكبار، ما أن تغمس يراعك في أنهر الوجود حتى تتحول إلى عطر يجري في أوردتنا. ننتظر أيُّها المبدع إصداراتك القادمة ونشتاق إلى جديدك المختلف مثل هذا.

كم أتمنى أن يصل كتابك لأوسع دائرة، أن يترجم ليقرأ من عدة لغات، فالحب لغة إنسانية وما كتبته إلا ضوء عطر من المحبة والعواطف الصادقة ليعبر عبر بوابة الأم للإنسانية والوجود عامة.

(حنين مُبعثر) لحميد الرقيمي.. بين فن الرسائل واليوميات والرواية

إبراهيم موسى النحاس

شاعر وناقد مصري

إذا كانت الكاتبة البريطانية فيرجينيا وولف كتبت فن اليوميات الأدبية وهي في الخامسة عشرة، وإذا كان الكاتب التشيكي الكبير فرانز كافكا كتب يومياته على مدار ثلاثة عشر عامًا تقريبًا، وإذا كان العرب كتبوا فن الرسائل وعرفوها على يد مُعلّم البشرية الأول رسولنا الكريم ثم تشعبت إلى رسائل ديوانية وإخوانية ووصفية، فإننا اليوم نتابع كتابًا جديدًا جمع بين فن اليوميات (ككتابة ما بعد حداثية) غزت حتى فن الرواية، وإحياء أحد فنون النثر العربي وهو فن الرسالة، لكن برؤية جديدة ومختلفة، فالكاتب حميد الرقيمي في هذا الكتاب (حنين مبعثر) يجعل من الرسائل إلى الأم لوحات تشكيلية أدبية تمزج على المستوى الفني بين فن الرسالة وفن اليوميات الأدبية، كما تمزج على مستوى الرؤية بين هموم وقضايا الذات إضافة لهموم الوطن، هموم اليمن السعيد والذي سيعود ويبقى سعيدًا بوعي شعبه صاحب الحضارة الممتدة في عمق وجذور التاريخ.

فعلى مستوى الرؤية يُسجِّل الكاتب قَدَر شباب اليمن حين يقول في الرسالة التي حملت عنوان (إليكِ فقط): ((تعرفين جيّدًا مَن أنا، حميد الطفل المشاغب الذي أتعبك

منذ لحظة خروجه إلى الحياة وحتى الآن، هل تغيَّرتُ بعد كل هذه التجارب؟، بعد كل هذه المراحل التي تجاوزتُها وحدي وكنت فيها أحارب على الجهات الأربعة كي لا أسقط؟ لا إجابات واضحة لكل هذه التساؤلات، ولكنني لا أزال أقاوم، أسير على أمواج من السواد والأشلاء والذكريات الجميلة.. هذا هو قدرنا يا عزيزتي، قدري وهذا الجيل الذي كُتبَت عليه مواجهة الموت بالموت، على جبال المعارك المشتعلة وفي ضياع الصحارى الواسعة، على ضفاف البحار التي تلتهم الغرباء دون رحمة، وهذه المنافي التي لا تطيق خطواتنا عليها. هذا هو اليمني يا عزيزتي، هارب من الموت إلى الموت)).

ويؤكد أن الشباب اليمني ليس هو المسؤول عن تردِّي الأوضاع الحالية فيقول في الرسالة التي حملت عنوان (ملامح وطن): ((وأنا ومعي كل اليمنيين نقف على جمرات هويتنا ونقبض عليها بأيادٍ مرتعشة. لم نكن السبب يا عزيزتي، لم نخلق هذا كله بإراداتنا، لقد وقعنا في فخ الحرب، ذلك الفخ الذي نصبته أيادٍ خبيثة لا تدرك قيمة الأوطان، ولكن هذا ما حدث، من منفى إلى منفى نحمل نعش حياتنا على أبواب تخاف قدومنا ونخاف رفضها)).

كما يربط بين الصراع في اليمن والواقع العالمي فيتناول تأثير أزمة كورونا على الموقف العالمي من الصراع داخل اليمن في رسالة (كعك العيد) ويؤكد أن هذه الرسائل هي مواساة وسبيل لمواجهة الذات لمرارة الواقع وقتامته، فيقول

في الرسالة التي حملت عنوان (نُدوب ونصف حياة): ((أكتب لكِ هذا السواد كله، هروبًا وبحثًا عن المواساة، أبحثُ عن الضمير الذي يتسرَّبُ يومًا بعد آخر من تقاسيم أرواحنا، وهذا ما لا يمكن أن أساوم به أو أتخلى عنه)). لهذا من الطبيعي أن يتمسك الكاتب بالأمل لأن الأزمات سبب من أسباب قوة الذات، فيقول في رسالة (طفلكِ الكبير): ((أعرفكِ تشتاقين بصمت، تعذبك هذه القرون المليئة بالدماء، والسنوات التي تسرَّب منها طفلك الضعيف والتائه، لكنني بفعل هذا كله صرت أقوى، صارت لديَّ المناعة التي لا يمكن هزيمتها أو كسرها إلّا حين تكونين أنتِ فيها نقطة ضعفي ومصدر هزائمي وانتصاراتي معًا)).

وإذا انتقلنا إلى الجانب الفني نجد أنفسنا أمام الكاتب المثقف الذي تظهر آثار ثقافته على كتابته، ففي رسالة (رائحة خوف) نجد حديثه عن ((أم كلثوم ومحفوظ وبيرم التونسي، إلى مقاهي العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم وترانيم السنباطي)) والإشارة إلى رسائل (غسَّان كنفاني) إلى (صفيَّة) إضافة لأثر الأدب الروسي على مرحلة تكوينه الثقافي في رسائل أخرى.

والقارئ للكتاب بعناية يجد نفسه أمام كاتب يجيد كتابة فن الرواية، حيث نلمس الدقة في وصف المكان بأدق تفاصيله كما في وصفه لمدينة القاهرة في رسالة (منفًى آخر) حين يقول: ((هذه المدينة يا عزيزتي لا تنام، لا يغفو لها

جانب دون أن يخرج من سكونه الجانب الآخر، تعيش تناغمًا مُستمرًا، ولا شيء قادرٌ على إخماد حياتها المتدلية من سماء اللّه المُرصَّعة بالتاريخ الكبير، والمليئة بالحضارات الحقيقية. ينشغل الكل في خدمة الكل، يسابقون بعضهم على البقاء في هذا القيد المتواصل، كل شيء يسير في اتجاهه دون توقف، شوارع صاخبة، أزقّة مزدحمة، أحياء مليئة بالمباني الطويلة المتعانقة، جسور تطل على بعضها برقصات المارة وأغانيهم، مقاهٍ تفوح منها رائحة التبغ والقهوة والسِّت أم كلثوم، يتدفق النيل بين هذا كُلّه بألوان صُنعت من جمال الإنسان وصارت على كل ناصية تُشكّل اللوحات المدهشة.

بلادٌ عجيبة يا أمّي، تحمل في صدرها كلَّ الحياة دون استثناء، كل الطقوس دون تمييز، مساجدُ قديمةٌ تملؤها مباخر السلاطين والأمراء، ومثلها كنائسُ فارغةٌ بالصليب المشوق، ولا أحد يصرخ بخبث، لا أحد ينادي بالحق الربَّاني، لا أحد يحمل سلاحًا وعلى ملامحه يتجسَّد الخبث المتراكم بخبثٍ أشد)). إضافة لقصص قصيرة مكتملة العناصر وتقوم على عنصر الحكاية كما في الرسالة التي حملت عنوان (صديقي أيلول).

سمة أسلوبية أخرى تمثلت في توظيف السؤال الذي يثير ذهن القارئ ويعكس قلق الذات، كما نجد توظيف التكرار للتأكيد على فكرة الكاتب ورؤيته، كم في تكرار كلمة (لنا) في رسالة (رائحة خوف) حين يقول: ((وماذا لنا

من هذا كُلّه؟، لنا الضياع والشرود، لنا السواد القاتم والظلام المستبد، لنا حلكة المنافي واختناقها المميت، لنا شفقة العابرين وتذمُّر الساخطين، لنا هذا القدر المثقل بكل الخيبات، ودون وطن يمنحنا قبرًا هادئًا على أقل تقدير.)).

لتتحول الرسائل/ اللوحات إلى دفقة شعورية مفعمة بأكبر كم من المشاعر الإنسانية والوطنية تجاه الأم بمعناها الخاص لدى المؤلف، وأيضًا الأم بالمعنى الرمزي العام أي الوطن... ولنُبحر معًا في عالم الكتاب لنكتشف المزيد.

أدب الرسائل في (حنين مبعثر)

باسمة العوام- شاعرة وناقدة سورية

أدب الرسائل هو أحد الألوان الأدبية المميزة، التي انتشرت في القرنين الثالث والرابع الهجريين .

هو فن نثريّ يُظهر مقدرة الكاتب وموهبته الكتابية وأساليبه البيانية والتصويرية القوية . ونراه اليوم في عصرنا الراهن، بشكل جديد ورقميّ وإلكتروني ..

والرسالة هي مخاطبة الغائب بلسان صاحب القلم مخبرًا بها عن أحواله والمكتوب إليه بأسلوب الكاتب أو المتراسلين فيما بينهم .

ـــ(حنين مبعثر) كتاب خالف أدب الرسائل في كونه يضمّ رسائل من كاتب واحد دون ردود عليها ، مما يجعله أقرب إلى سرد اليوميات أو رواية حكايات، ضمن رسائل موجّهة وبأسلوب نثريّ ووجداني عميق، وبالتالي نحن نتحدث عن رسائل وليس مراسلة .

ثمان وثلاثون رسالة، وتحت تلك العناوين :

" إليك فقط ملامح وطن منفى آخر ندوب .. ونصف حياة طفلك الكبير أطياف تشبهنا رائحة خوف سوماني صباحات القرية ملامحي هناك شرود وطن كوخ قابل للترميم حياة مسروقة لن أخون أبي أنا ..أنتِ بوصلة دون اتجاهات أبي ..لا أكثر هل تراها مثلي ؟ شظايا على الطريق تجاعيد

طفل لاأزال واقفًا الوطن أغلى سأعود قبل أن أنسى نهاية قبل البدء نظرة أخيرة كعك العيد مائدة دافئة بالضحك الجحيم ينتظرك حكاية طفل بقايا كابوس بقايا حياة عذابات ماذا لو !! حكايات صباحات تائهة تغريبة اليمني ـــ صديقي أيلول ".

رسائل كلّها معنونة ب " إلى أمي العزيزة "، ومذيّلة باسم الكاتب (حميد الرقيمي) .. والبداية ثلاثة حروف منفصلة (أ م ي) متبوعة بالمقدمة :

" ثلاثة أحرف، كأن كل حرف تسبيحة مجنحة، هتاف صاعد إلى السماء، ترنيمة متبتلة، وجع دامٍ، عزف دامع، نزف مديد، وحنين مبعثر ..

هذا أنا، أعود إليك من اللامكان، شجنًا ضارعًا أفتش عني وعن عالم كوجهك وقلبك .

أودع كل هذا الشجن بين يديك كي لا ينفرط عقد الأبجدية، فتقبليه خالصًا لقلبك الكريم .

ابنك حميد

ـــ ثمّ كلمات مقتبسة :

" لقد ذهبوا إلى الجنة يا أمي .. لا تحزني، إنهم يتمشون الآن تحت أشجار مزهرة ويتحدثون مع الملائكة وقد نسوا عذاباتهم كلها ".

(نيكوس كازانتزاكيس)

ـــحنين مبعثر : سطّره كاتبنا في رسائله التي حملت ذكريات طفولة في أحضان الأم، وهذا مارأيناه في صورة الغلاف . ثم حنين وذكريات في أحضان وطن مشظّى، باعدت الحرب والجوع والقهر بين أبنائه، وهذا مادلّت عليه حروف ثلاثة مبعثرة، منفصلة ومجموعها أمي كما وردت في المقدمة . والرسائل جميعها إلى الأم بكل تفاصيلها، أم ولدت مازالت تضيء عتمة الطريق دون استياء أو ضجر، ووطن احتضن .. ثم صار عنوان قصة وإمضاء قلم، ذرفه كاتبنا وابلًا من صراخ صامت، بعد أن تركه عند حدود المتاهة والضياع، وكلّ المضامين : حنين مبعثر من طائر تغرّب عن فضاءاته ، أنهكه ليل التشرذم و اكتوى بنيران الحرب، فطار يرفرف خذِلًا يداوي الجرح بالألم، ينثر حروفه على الندى علّها تزهر بأبجدية الوطن الغالي .

ـــابن اليمن الجريح (حميد الرقيمي) يفتتح رسائله إلى أمه فيخاطبها قائلًا :

" إليك فقط

سأكتب إليك وحدك، ولن أخاطب أحدا دونك ولن تكون هذه الرسائل إلا جسرًا يحملني إليك ....."

" هذا هو قدرنا يا عزيزتي، قدري وهذا الجيل الذي كُتب عليه مواجهة الموت بالموت، على جبال المعارك المشتعلة وفي ضياع الصحارى الواسعة، على ضفاف البحار التي تلتهم الغرباء دون رحمة ....."

ـــثم يعود مع ملامح وطنه وصور أمه وذكريات نحتها الألم على جدران قلبه بكل قسوة فيكتب :

" كان عليّ أن أحتضن في أحشائي الكثير من تراب مدينتي حتى أصير أقوى، لكنني اكتفيت بالقليل وعبرت على جثث الذكريات ....."

ـــو من بلاد أخرى ومن منفى آخر (من القاهرة)، رسالة يقول فيها :

" أكتب إليك، من غرفة تنكرني وسرير يتأوّه من ثقل حمولاتي ....."

" أجد الكثير من اليمنيين هنا، ولايمكن أن تخفى ملامح بلادي في أعينهم دون أن أعانقها، تهرع روحي إلى مواساة هذا الجرح الطويل ....."

ـ ونمضي مع كاتبنا، في رسائل من صفحات ذكريات مشردة، ولغة تسبح على السطور وفي محراب الحنين المبعثر صلاة معانيها، وقلم يكتب الألم في ليالٍ بلا وطن، وفجر يتنهّد عمق المسافات، وأيام غربة هزمت كلّ سنين العمر .

حروف تثور، فيجيبها الدمع صامتًا في عيون تتأمل زوايا الغربة، تمتطي صمودًا وصبرًا فوق موج هارب من الزبد، تبحث عن شواطئ للأمان والبوصلة دون اتجاهات ...

" عشت في بداية الأمر كغريب تائه، لم أكن أعرف أين ستستقر بوصلة روحي وأنا أطارد حلما أعرفه وينكرني ..."

ـ نتابع القراءة في بعض ماورد في سطور هذه الرسائل :

*" صباحات القرية

..... والآن بعد كل هذه السنوات لاأزال أتحسر على أوقات كان يجب أن تلتصق فيها روحي وكل وجداني وجوارحي بالريف .. "

*" ملامحي هناك

أمي العزيزة

أكتب إليك من مطار اسطنبول، أنا في طريقي إلى العاصمة التونسية للمشاركة في أحد المؤتمرات الإعلامية، يعيش الناس هنا في عالم مختلف، وأنا وحدي أصارع عوالم كثيرة، الرياح تصفعني وتذرُّ على ملامحي حبات الغبار القادمة من أقصى بلادي ....."

*" سأعود قبل أن أنسى

أمي العزيزة

اليوم سألني صديقي مستغربا : لم لا أحنُّ إلى رمضان المنزل والأم والأهل ؟

لقد صفعني بطريقة لا يعرف ثقلها على قلبي .....

سألت نفسي : هل حقا نسيت كل شيء ياحميد ؟ لكنني كنت على يقين بأنني لم أنس، اكتفيت بالرد على صديقي بابتسامة باهتة ....."

*" .....أتيتك لأنني لم أجد دفئا في المنافي البعيدة المفرغة من رائحة الحياة ..تلك النسمات التي عهدناها على تلال فصولنا

الخضراء تاهت، وبقيت أنا، أنا الذي لم يبق منه إلا أنت. تقبّليني حتى لاتنطفئ بقاياك، بقايا طفلك التائه الموجوع".

*" تغريبة اليمني

أمي العزيزة :

ما سأضعه هنا، قصة عاشها اليمني قبل خمسين عاما، ويعيشها اليوم، وأخشى أن يعيشها في المستقبل، أليست تغريبة اليمنيّ شبيهة بالتغريبة الفلسطينية ؟ ....."

*" صديقي أيلول

أمي العزيزة :

أيلول بطل يمنيّ وضع لي هذه الرسالة، ثم أخذني إلى عالمه العظيم. قد تبكيك هذه السردية قليلا لكنها ملحمة من الشخصية اليمنية التي ننتمي جميعا إليها ....."

" ماكان أضعفني عندما سألته : ما الذي تريده مني ياأيلول ؟

فرد مبتسمًا :

أن تبقى يمنيًا حقيقيًّا وللأبد ".

هكذا كانت رسائل (حميد الرقيمي)، نصوصًا نثرية رائعة، حملت أبعادًا سياسية، اجتماعية، اقتصادية وأدبية. اعتمدت أسلوب السرد المتضمن لبعض الحوارات والاقتباسات النثرية والشعرية أحيانا، وتضمنت تفاصيل واقعية دقيقة عن حياة الكاتب والأوضاع السائدة والمفارقات التي واجهته في كل محطة من حياته وحال الأماكن التي تواجد فيها.

وبالتالي يمكن اعتبار هذا العمل الذي جمع بين أدب الرسائل والأحداث التي تنتمي إلى الواقعية النقدية، عملا أدبيًا مميزًا يروي قصصًا واقعية موثقة في رسائل.

قراءة جمالية في (حنين مبعثر) للشاب اليمني حميد الرقيمي

صلاح محمد الحسن القويضي – السودان

(حنين مبعثر) كتابة إبداعية صدرت في ٢٠٢١م بقلم الشاب اليمني المقيم بالسودان حميد الرقيمي. الكتاب صادر عن دار)عناوين(في أربع وثلاثون ومائة صفحة من القطع المتوسط (١٤X٢٠ سم). بغلاف مصمم بصورة جاذبة ومتناسقة مع العنوان.

اعتمد الرقيمي لكتابته الإبداعية شكل (الرسائل)التي وجهها جميعًا إلى أمه، في خمسة وثلاثين عنوانًا انتقاها الكاتب بعناية ليناسب كل منها موضوع رسالته. وشكل (الرسالة) في نظري هو (قناع) إبداعي اختاره حميد الرقيمي لعرض نصوصه التي يمكن النظر لبعضها باعتبارها (مقالات) تعرض (فكرة) محددة بطريقة واضحة كما في (نهاية قبل البدء ص ٨٨/٨٧) و(الوطن أغلى ص ٨٣/٨٢). كما أن بعضها يدخل في باب (الخواطر) كما في حالة (ندوب ونصف حياة ص ص ١٩ /٢١) و(الجحيم ينتظرك ص ٩٩/ ١٠١).

بينما يبدو بعضها الآخر أقرب للنصوص (السردية) كما في حالة (سوماني ص ٣٥ / ٤١) و(هل تراها مثلي ص ٧١/٦٩) ومائدة دافئة بالضحك ص ص ٩٦/٩٥) و(حكاية طفل ص ١٠١/٩٩). ورغم تنوع (الأنماط) فإن (حنين مبعثر) في مجملها كتابة (وجدانية) تفيض بالمشاعر والأحاسيس والنوستالجيا والمحبة.

في كتابته الإبداعية هذه يعبر الرقيمي لأمه عن حنينه ومحبته لها ، ولكنه يعبر أيضًا عن حنينه ومحبته (للأم / الوطن) اليمن وعن حزنه على حالته.

(لا أدري ماذا يمكن أن أقول وبلادي مخنوقة بالخذلان والجراح الراعفة. فلا ذلك النسيم الذي عهدناه صغارًا عاد ولا ذلك الصباح الذي أشبعنا حنينًا وحرمانًا أطل من جديد. تسير بي بلادي وكأني بها أسير أبدي مشنوق بحنينه وضياعه ومنفاه الشارد الأبكم ...) ص ١٠٩

كما يعبر الرقيمي في رسائله عن محبته لوطنه الثاني (السودان).ويجسد فكرة (السومانية) من خلال نصه (سوماني).

(ذات يوم قابلت سودانيًا نبيلًا. سألني :من أي بلد أنت؟ قلت له : من اليمن. فرد مبتسمًا : أن تكون يمنيًا وفي السودان فهذه من الأشياء العظيمة...

هل هناك محبة أكثر من ذلك يا عزيزتي)

وكل الرسائل تفيض، بجانب ذلك، بمشاعر المحبة للبشر اليمنيين وبالتعاطف معهم:(فأنا حريص على أن لا أعود إلى منفاي الآخر إلا وقد امتلأت بروائح اليمنيين) ص ٢١.

والرقيمي، من خلال رسائله لأمه، يعرض صورة قاتمة (للحرب) في اليمن ولآثارها المدمرة على البلاد والعباد ، وذلك من خلال تجربته الشخصية وتجارب غيره من اليمنيين الذين تقاطعت مصائرهم مع مصيره في اليمن وفي (المهاجر)

(أتسكع في شوارع القاهرة ... وأنا لا أمتك إلا بلادي التي تنساب على أزقتها بأجساد ناقصة مليئة بندوب الحرب وتشوهاتها. لا يمر يوم لا يمر يوم دون أن أقابل يمنيًا دون عين، دون ساق، دون قدم ... دون حياة ... أجده يسير خائفًا وكأنه وسط حقل كبيرمن الألغام ...مرعوبًا من فوبيا الطائرات والمدافع وأزيز الرصاص الذي اعتاد عليه في وسط ملتهب بالموت ...) ص١٩

كما يستعرض الرقيمي في رسائله لأمه، بصورة (إبداعية) ملامح حياة (اليمني المعاصر) وكيف أفقدته الحرب طبيعته كإنسان (سعيد) وحولته إلى كائن يحمل (كفنه) على كتفه في إذا قرر البقاء في اليمن ويحمل (أحزانه) و(همومه) على ظهره في المنافي القصية.

(مشيت كثيرًا في شوارع القاهرة . كنت أحاول بالمشي والصمت والهروب من كل الأشياء حولي أن أتخفف من هذه الأثقال. لكنني لا أقدر يا أمي. أعود إلى ذاتي الممزقة فأجد كل شيئ حولي يتمثل اليمني المصاب بعشقه للأرض المسلوبة والوطن المنسي. كانت الجثة الملقاة على صدر الموت تطاردني لتزيد من صخب الشوارع المزدحمة بالمارة. وكنت أترنح بهذا كله كمسن سكران. أتمتم بالله وبكل الأشياء التي ألجأ إليها في لحظات ضعفي وهواني) ص ٢٢

هاجس العودة لحضن الأم وحضن (الوطن / الأم) يتخلل كتابات الرقيمي كخيط ناظم يقطر بالنوستالجيا وأشواق

العودة

(عندما أعود إليك سأتجرد من كل منا في العمر. أتجدد بك ومعك. سترقص روحي، قلبي، وقتي، وكل مشاعري بهوس لا يخمد) ص ٧٩

غير أن رسائل الرقيمي لا تكتفي بذلك. فهو يطرح في بعض هذه الرسائل رؤىً وأفكارًا وتساؤلات حول أسئلة وجودية أشمل كأسئلة (الذات والآخر) وسؤال (الموت) والعزلة

(أكتب الآن تنهيدتي الأخيرة ...أعكف في غرفة صغيرة لا أحد يقترب مني فيها ...

أشاهد الموت يقترب مني فأقول في نفسي: ماذا لو يموت الموت ويتركني أقضي ما تبقى لي من شغف في هذه الحياة) ص ٨٩

في كتابته الإبداعية هذه يعتمد الرقيمي (سجلًا لغويًا) يتميز بالوضوح والسلاسة وسهولة الفهم. لكنه لا ينسى أن ينتقي مفردته بعناية لتملأ النص بدفق وجداني خاص. وفي في كثير من لحظاتها تقترب لغة الرقيمي من لغة الشعر. بل وتقترب (تراكيبها) من التراكيب الشعرية: (أشعر بعطش قاتل ... تتسرب الصحراء لروحي ... رمالًا ورياحًا ... وجمالًا مليئة بالتعب) ص ٢٧، و(تلبسني الحمى كخرقةٍ بالية ... لا أدري أين أنا ...كأنني في بقاع مختلفة ... بكلٍ واحد) ص ٩٥

كما أن الشعر نفسه يسجل حضوره عبر النص الشعري (غريبان في هذا البلد) للشاعر اليمني عبد الله البردوني،

والـذي أورده الرقيمـي في صفحـات ١٢٣ و١٢٤ مـن (حنـين مبعثـر)

(عرفته يمنيًا في تلفته خوف
وعيناه تاريخ من الرمد
من خضرة القات في عينيه أسئلة
صفر تبوح كعود نصف متقد).

خاتمة

مـن ميـزات الكتابـة في شـكل الرسـائل – الـذي اختـاره الرقيمـي – أنـه يتيـح للقـارئ الملـول - مثلـي – حريـة أن يتجـول بـين صفحـات الكتـاب كمـا يشـاء دون تقيـد ببدايـة ونهايـة. وقـد فعلـت أنـا ذلـك مبتدئًـا بنـص (سـوماني) الـذي اغرورقـت عينـاي بدمـوع المحبـة وأنـا أقتـرب مـن نهايتـه. لكننـي عـدت فقـرأت الكتـاب رسـالة رسـالة قـراءةً تجعلنـي أقـول بـكل ثقـة أننـي :

- قبـل قـراءة (حنـين مبعثـر) كنـت أظـن أننـي أعـرف اليمـن. بعـد قـراءة (حنـين مبعثـر) صـرت أعـرف اليمـن بصـورة أفضـل.

- قبـل قـراءة (حنـين مبعثـر) كنـت أظـن أننـي أعـرف إنسـان اليمـن. بعـد قـراءة (حنـين مبعثـر) صـرت أعـرف إنسـان اليمـن بصـورة أفضـل .

- قبـل قـراءة (حنـين مبعثـر) كنـت أحـب اليمـن وإنسـانها. بعـد قـراءة (حنـين مبعثـر) صـرت أحـب اليمـن وإنسـانها أكثـر.

وما أجدر كتاب كهذا بالقراءة ...

الأم الوطن

الحسن محمد سعيد

أديب وناقد سوداني

عضو لجنة التحكيم في جائزة الطيب صالح

أسعدني الأستاذ(حميد الرقيمي) بكتابه (حنين مبعثر) اهداء" واطلاعا" .. والكتاب في جملته قصيدة شعرية طويلة في حب اليمن، ورثائه في محنته في الدمار الذي ابتلاه به (الزمن الوغد) مع جهل الجاهلين وطمع الطامعين !!..

ذلك الحب العظيم، حمله الكاتب في (بساط ريح) آخر من حب نبيل لا يقل عظمة ومسؤولية من حب الوطن، وهو حب الأم ومناجاتها ..وبتلك الوسيلة الفنية من أدب الرسائل، جمع الكاتب (الحبين)، كل منهما يقود إلى الآخر، في تناغم مدهش بالكلمة الرشيقة الباذخة بالدلالات ..

وزع الكاتب مناجاته في خمسة وثلاثين عنوانا"، وكل عنوان شحذه بالإيحاء الدلالي الذي يستبطن عالما" من الحنين لبلد عظيم، الأمهات فيه يحملن عذاباته في صبر، لا يفقد يقينه في الغد ..

حميد الرقيمي، كتب كتابه الذي نحن بصدده، بالكلمة الشعرية التي تحمل جبال ومرتفعات وهضاب وسهول صحاري اليمن، وربطها بجسر (الأم) التي تعني أعظم قيمة في الحب والتضحية .. وبناء" على ذلك مزجت رسائله بين حب الأم وحب الوطن كما يقول الناشر ..

لم يكن الكتاب مملا"، وإنما كان أنشودة شعرية تبكي وترثي وطنا"، انا شخصيا" أعرف الكثير عنه .. فقد عشت زمنا"، هو أحلى أعوام عمري .. وعرفت فيه أعظم الرجال، واشجع الرجال، وانبل الرجال..

لم تكن عبارة (حميد) غريبة عني، وإنما شعرت معها، كأن الكاتب يتحدث بلساني ووجداني وعواطفي ..بلد أصبحت من بعض أهله، خرجت منه جبرا" وقهرا"، وما زلت أحلم بالرجوع اليه ..

لم يكن الكتاب رواية، لأن (حميد الرقيمي) آثر أن بتعامل مع الواقع بكل ما تحمله الكلمة من مسؤولية، وابتعد عن مجاهل التخييل، فلم يكن في حاجة لتلك الوسيلة الفنية ..

طرح الواقع بمأساته وظلمه وسواده وحزنه، وهو يستصرخ الدنيا تجاه وطنه الذي تعصف به عوائد الدهر .. وجعل وسيلته الفنية أدب الرسائل..وكانت (أمه) الرمز (للوطن)، فكان موفقا " وممتعا"

حميد الرقيمي الذي لَمْلَمَ حنينه في كتاب

د. فيصل علي ناقد يمني

وأنا اتصفح كتاب الصديق العزيز حميد الرقيمي المعنون " حنين مبعثر" شعرتُ بطعم المرارة، فهذا الجيل يدفع ثمن غفلة الأجيال التي نامت في العسل، أو هربت من الواقع، أو توهمت النصر وركنت على الجهلة في إدارة شؤونها، فبعد ثورة انهت الإمامة والاحتلال شكليًا فقط – فقد استمرت المنظومة الاجتماعية والثقافية والمعرفية للعهد البائس على حالها – احتفظت بريطانيا بقوائم حلفائها ومجنديها حتى اللحظة، واحتفظت الإمامة بكهنتها وكامل منظومتها داخل بنية المجتمع معتمدةً على ما جرت عليه العادة في التمايز الاجتماعي الذي استمر إلى اليوم.

الأسى والتيه والخوف والهجرة والتشرد ومفردات حزينة كثيرة اختزلها حميد في كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتان على الوجدان " حنين مبعثر" ٦٠ عامًا فقط وعدنا نتدفق نحو المنافي مفارقين بلاد النور تاركينها للظلام. وكل يوم الصور الحزينة تطعن أحاسيسنا قادمة من المهاجر المتعددة لليمنيين، عندما نرى بعض من فروا رغمًا عنهم وعن أسرهم واقتلعوا أطفالهم كالشتلات الحزينة من أرضهم يتوارون هناك في البلدان البعيدة تحت بند قبولهم لاجئين، يعتبر البعض هذا اللجوء مفخرة ومُنجز، بينما الأغلبية يتوارون عن الأنظار من

أثر الذل والقهر والحسرة، وهذا هو ما قاله حميد في ١١٦ صفحة من الحنين المتواصل بلا انقطاع.

وضعني الكتاب في الصورة المأساوية للمشرد اليمني خارج الديار، ووضعني أمام تساؤلات تخص كاتبه، لم أجد الوقت ولا المناسبة لسؤاله، وربما يُحدث الكتاب تساؤلات أكثر عند آخرين، خاصة حينما يعرفوا أنهم مظلومين دون أن يدونوا مظلوميتاهم كلٌّ على حدة، ويجب ألا تفوتهم لحظة الحزن والفراق بدون تدوين.

هذه مأساة وتغريبة يمانية جديدة تتبع تغريبات كثر ابتدأت في أول التاريخ بحثًا عن الماء والمرعى، وتلتها هجرات السيطرة والتجارة والتي امتدت إلى كل أرجاء الوطن العربي وشمال وشرق أفريقيا، وبعد انتهاء الدولة الحميرية حدثت هجرات أخرى في العهد الإسلامي، وفي عهد طوائف الغزاة بعد عام ٩٠٠ ميلادية حدثت هجرات خفيفة تلتها عودة هجرات معاكسة نحو اليمن في عهد الاستقرار الذي صاحب الدولتين الأيوبية والرسولية، وفي القرن الخامس عشر بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وانحسار التجارة في اليمن حدث نزوح وهجرة جديدة نحو الهند وجنوب شرق آسيا، ومنذ الاحتلال الإنجليزي والذي تلته سلطة الإمامة ظلت الهجرة مفتوحة نحو الشرق عبر مياة المحيط الهندي، وهجرات متكررة اجتازت المضيق لتصل إلى ضفته الثانية في القرن الأفريقي، وبعد الثورة اليمنية في ١٩٦٢ استمرت الهجرة لكنها كانت نحو

أراضي الجزيرة العربية موطن اليمنيين الأكبر، والتي قسمتها اتفاقية سايكس بيكو في ١٩١٦م، كانت هجرة اختيارية بسبب اكتشافات النفط هناك، ولم يحدث من ذلك الحين أن نزح وهاجر وتشرد اليمنيون كما حصل لهم بعد عودة الإمامة تحت مسمى الحوثيين في ٢٠١٤م وما تلاها من أعوام إلى اليوم، وازدادت هذه المأساة ضراوة بعد تحريك بريطانيا لعناصرها القديمة تحت مسميات جديدة بدعم صوري من إمارات ساحل القراصنة.

اليوم وصلتني رسالة محبة من صديقي حميد يستشيرني في نص من أروع ما يكون، فكتبت له رسالة اضمنها هذا النص:

"نفسي أسألك لمن كل هذا الحنين والرسائل هنا وفي حنينك المبعثر؟ لا أُخفيك وأنا اتصفح ما لملمته من حنينك المبعثر في دفتي كتاب، عن هذه الأم، هذه الحبيبة، هذا الوطن، ووجدت الرسائل منها ما هو موجه للأم البيولوجية، ومنها ما هو موجه للوطن الأم، ومنها ما هو موجه للحبيبة الأم، تفرقت الأمهات واجتمعن أيضًا في (حنينك اللامبعثر) ربما أنت الوحيد ياصديقي العشريني الذي استطعت أن (تلمّ حنينك) أما البقية فحنينهم مازال مبعثر. وما هذه الرسالة المكثفة إلا تبعًا لذلك الحنين الذي يسكن وجدانك، لو كتبت مائة كتاب بعد كتابك حنين مبعثر ستظل تدور حول كتابك المحوري، وهنا يكمن الإبداع يا صديقي العزيز. اعذرني لم أكتب عن الحنين

منذ قرأت كتابك لأني مسكون به، ولأنك هيجت أشجاني بكتابك، وأدركتُ كم أنا عنيد ومتعجرف إذ هربت من كتابة الحنين إلى كتابة ما لا أحبه، ولست إلا كمن أُجبر على المضي في اتجاه واحد. مازال الحنين في صباه يا صديقي اكتب لها وعنها، لا توفر، ولا تستكثر ما كُتب لها من حنين، انتقل معها من حنين إلى آخر، لا تتركها بدون حنين، حاصرها بك وبحنينك. وأنا اقرأ حنين مبعثر، وجدت الفضول في رسالته الخالدة (يا من رحلت إلى بعيد) بكل تفاصيلها في ثنايا حنينك يا حميد. فتحت الأغنية بصوت أيوب ودندنتُ معك من صنعاء إلى القاهرة والخرطوم".

فوزي الحقب - كاتب يمني

وصلتني نسخة مميزة من كتاب "حنين مبعثر" للمبدع الجميل/حميد الرقيمي، حملت توقيعه وأمضاءه وأختصني بها على وجه التحديد، وبالقدر الذي أهنئه على تميزه وأبداعه فأنني أحييه على إنسانيته النبيلة التي تنساب رقة وعذوبة آسرة، تقبل على الحياة بغيمة ماطرة وضمير حي وطموح كبير وحب مليء بالإحساس الجميل والشعور السامي والعواطف القدسية، ظهر ذلك واضحًا وجليًا من خلال ما سطرته يراع أناملة من لوعة الحب وحنين الاشتياق وتنهيدات الفراق..

وإذا كان هذا الكتاب رغم حداثته وبداياته الأولى وجد فرصته للظهور فأننا نجد فيه المتعة المشوقة التي تستكين اليه أرواحنا وجوانحنا بصورة شاعرية، وخاصةً عندما يجذبنا إليه الشجن المفعم بأريج الأدب الذي يشع إيمانًا بحب الوطن الكبير، وكذلك مدى تعلقه بالذكريات الدافئة التي تحمل رسائل شوق ونسمات وفاء، تهدهد النفس الكئيبة بشيء من الحنين وتداعب الأجفان المتعبة بالمشاعر الحانية..

هذا التدفق الذي يفيض بالنقاء والعطاء الصافي، هو الذي يبدد قلق البعاد عنا وعنه، ويبقيه صامدًا في وجه الرياح البعيدة كي يعيدنا إليه من جديد.

كما أنه في أحاديث أخرى يحفر على جدارية وجداننا أشواقه المتضاربة التي تعزف سيمفونة الحزن على وقع أنفاسه

الحرّى، وكأنه بهذه الأحاسيس يهيم بإرجاء روحه في شروق وغروب ويعاني الوجع الذي لا يحتضن قلبه العظيم كما يجب، حيث تسافر السنوات من عمره وحلمه الكبير لا يزال مؤجلاً بين الحقيقة والخيال.

وكم حاول ان ينتزع من ذاكرته بعض الأمل الذي يرجوه من خلال التحليق المستمر في آفاقه الرحبة الذي حمتله سطور مشاعره، ونبض بها بهذه الإطلالة على ساحة الأبداع، فتجد أنك أمام زهرة فواحة تستمر بالتفتح وتنعشك برائحتها الجميلة وتطوف بمخيلتها إلى كل شيء بداخلك يجذبك إليه.

لن أطيل فقد سبقني الكثير ممن هم أدرى وأعرف مني في جمال المبدعين وتقدير ملكاتهم الموهوبة، لكنني أسند إليه تشجيعي ودعمي ويبهجني كثيرًا أن أجد نفسي مع حقيقة قلبه الرائع وأبداعه الأجمل .

أتمنى لك مستقبلاً يليق بقلمك .

حنين مبعثر في المنافي

زياد مبارك - ناقد سوداني

«حنين مبعثر» عنوان لكتاب صدر حديثًا للكاتب اليمني والإعلامي الشاب حميد الرقيمي عن دار عناوين ٢٠٢١، في ١٣٤ صفحة. مجموعة من ثمانية وثلاثين رسالة سطّرها المؤلف إلى الأم كرمز متعدد المساقط. حيث الرمز أشبه ما يكون بالمنشور الزجاجي يشتت الضوء ليسقطه طيفا من المعاني المختلفة ذات العلاقة/ بالأم، الأرض، الوطن، الأسرة، الرفاق...

وهذه الرسائل كتبت لتصوّر اليوميات في المنافي، تضوّع الحنين المبعثر في المنافي، والمبعثر في أوجاع اليمن الذي كان سعيدا قبل أن يسقط في هوة الحرب، ومبعثر في وجدان المؤلف مما طرحه من هموم وآمال.

يقول في المدخل «أمي هذا أنا، أعود إليك من اللامكان، شجنًا ضارعًا أفتش عني وعن عالم كوجهك وقلبك، أُودِع كل هذا الشجن بين يديك كي لا ينفرط عقد الأبجدية».. فالمؤلف منذ المدخل يفصل الأم من الذات إلى الرمز (أمي هذا أنا) والمكان من المعرّف المعيّن إلى النكرة في بسيطة الجغرافيا (أعود إليك من اللامكان) ليتمثّل خطابه في/ رسائله/ يومياته.. ليعبّر عن الجيل اليمني المنزاح إلى المنافي من الوطن مشتتًا ومبعدًا في اللامكان/ كل جغرافيا خارج

الوطن. فهي كتابة الرؤى وإن حملت بعض الرسائل سمة الذاتية كرسائل هي للأم ولكنها لا تخلو من حديث عن القضايا اليمنية أيضا ، وحياة اليمني خارج اليمن وما يقاسيه ويحس به. وهذا ما يصيّرها كتابة للهم العام في ثوب الذاتي الخاص.

وفي المدخل الثاني.. «لقد ذهبوا إلى الجنة يا أمي، لا تحزني، إنهم يتمشون الآن تحت أشجار مزهرة، ويتحدثون مع الملائكة وقد نسوا عذاباتهم كلها/ نيكوس كازانتزاكيس».. فإلى الأم تهوي مشاعر الفجيعة من المنافي حمّالة لاعتلاج الفقد وعبارات التعازي. عمل المؤلف كمراسل حربي في موطنه مما أتاح له أن يرى الحرب في ميادينها ويتابع أحداثها المدمرة فجاءت رسائله من المنافي نابضة ترمي عن بصيرة الرائي لما خلفه في الوطن، ومتفاعلة ملتاعة بمآل الداخل وآلام التشظّي في الخارج.

(سأضع قبسات من بعض هذه الرسائل مع أن الاقتباس منها يظلم الكتاب لأن كل كلماته تستحق الاقتباس)...

في رسالة (ملامح وطن).. «أمي العزيزة... ونحن على نوافذ مطار القاهرة، لم تري هيئتي وأنا أقف أمام الموظف وفي يدي جواز سفر مُنهك يحمل في طياته ثلاثين مليون يمني، كنت أتلفت كلص خوفًا من الرفض... لقد وقعنا في فخ الحرب، ذلك الفخ الذي نصبته أياد خبيثة لا تدرك قيمة الأوطان، ولكن هذا ما حدث، من منفى إلى منفى نحمل نعش حياتنا

على أبواب تخاف قدومنا ونخاف رفضها».. استطاع المؤلف باقتدار في جملة رسائله عرض حالة الداخل اليمني والخارج اليمني الذي يمثّله إنسانه المنفي. فيعرض الحالة الوجدانية للمنفيين المبعدين عن الوطن بأدق التعابير التي نجحت حقا في نقل تلك الاهتزازات التي لا نلتقطها بسهولة لولا مثل هذه الكتابة الشفافة في حنين مبعثر.

وفي رسالة (منفى آخر).. «أمي العزيزة... أكتب إليك من بلاد أخرى، من منفى آخر، من غرفة تنكرني وسرير يتأوه من ثقل حمولاتي، لا أعرف من أين أبدأ الحكاية، لكنني سأتوقف قليلاً مع خطواتي الأولى.. وصلت إلى القاهرة قبل أيام... ولكنني أيتها القريبة غارق في هذا الحزن المتسيّد على كل خطواتي، غارق في لحظات اليمني الأولى وهو ينفض عن ذاته غبار الخوف حتى يظهر أمام الآخرين بتأنقه المتجاسر على كل لحظة ألم، فنحن شعب المعجزات يا أمي، شعب عظيم لا يشبه إلا نفسه، يألف كل شيء وتألفه كل الأشياء، شعب يعرف جيدًا طريقة خلوده في أعماق كل الشعوب».

وفي الرسالة الأثيرة (سوماني) العنوان المنحوت من اللفظين/ (سوداني - يمني) يكتب في يومياته «وصلت إلى السودان من جبهات القتال التي عملت على تغطية أحداثها والتي شكّلت شخصيتي بكل ما فيها من صلابة وهشاشة.. رأيت لحظتها الخرطوم فردوسا هادئًا غير مشوه بالحروب ولغة العنف... وجدت في الخرطوم ضالة الإنسان الطافح بالغيظ والهارب من

ملامح الواقع الدامية».. وتمتد الرسالة في بنية سردية ليحكي عن مواقفه اليومية في الخرطوم.. «وقفت على أطراف الشارع، لم أكن حينها إلا كقشة تصارعها الحياة دون أن تجد مرساها الهادئ... كنت أتأمل المارة وبلادي تراقبني من خلف أعينهم، أردت معانقة كل سوداني يمر من جواري دون أن يقول شيئًا، دون أن يتذمر من مشرد اتخذ بلاده المتهالكة بجوعها وفقرها مسكنًا ووطنًا».

ثم يقرن الكاتب في رسالة (صديقي أيلول) بين ذكرى أيلول ١٩٦٢، ذكرى تأسيس الجمهورية اليمنية، وبين توتي جزيرة مقرن النيلين.. فيجسّد أيلول كشخصية يحاورها في قالب سردي عن قضايا اليمن.. يقول الكاتب «أمي العزيزة.. أيلول بطل يمني وضع لي هذه الرسالة، ثم أخذني إلى عالمه العظيم.

علي صالح أحمد - إعلامي يمني

عن الوطن نبحث، وله نكتب، ومن أعماق النفس اليمنية المترعة بالألم والألم والاشتياق، والرفض، والقبول، والعواطف الجياشة من ضفاف الحنين إلى غياهب المجهول في الآتي المتبرأ منه والمأمول..

احسبه لسان حال الكاتب الجم اللطف والأدب في الحرف ومسارات القول وحنايا اللطف : حميد الرقيمي ..

حميد الرقيمي - بودي لو كررت هذا الاسم آلاف المرات لأسهم في التعجيل بنقشة على صرح الأدب الإنساني الباذخ في عاطفته ورفعة شأنه، أتمنى ذلك، لا محاباة او مجاملة ولا من باب الترويج لمنتج ضمه دفتران من الورق الصقيل وإنما ببساطة لأنني رأيت في حرفه نفسي وأظن كل من قرأ له سيجد فيه ما وجدت !.

في حنين مبعثر الذي تأخرت كثيرا عن الكتابة عنه كان الحنين بوتقة إنسانية بالغة التأثير في رسائل عميقة لامست قلوب الأمهات وعقولهن كما فعلت ذلك بالأبناء -أم حميد المفترضة أو التي أنجبته ذات ساعة من التعلق بخيوط الضوء المولد للحياة، هي أم من يقرأ ومن يسمع او يطالع وهو هو، كأنك هو، وكأنه أنت .

سألته بانفعال مشوب بالشك: كيف صنعت ياسين صاحب الركشة الصفراء (سيارة التاكسي باللهجة السودانية)

بذكاء يخبر عن نفسه قال :إنه الواقع نقلته بأمانه وما زال ياسين صديقا لي.

رددت من خلال ضحكة إعجاب بسرعة بديهته ،والاجمل في الحكاية اتساع دائرة التوق الإنساني ليشمل كل من اتصل بروح الأديب بأي قدر وإن من بعيد ليصبح بعضا من نسيج ذلك الشَهْد الشاهد على واقع حال ..

الصدى الواسع الذي أحدثه الحنين بين القراء ومن خلالهم في الوطن العربي مؤشر لطيف ومطمئن أننا كعرب ما يزال لدينا بقية من ذائقة كانت جواسة وميل للقراءة كان مسيطرا حتى نهاية الثمانينات إن وجد القارئ مبتغاه في حرف يعبر عنه ...

لم تطل الفترة بين الحنين والرواية الأخرى التي اراها من وجهة نظر متواضعة تطورا ملحوظا في المبنى والمعنى:

الظل المنسي : روايته الثانية التي تنفذ بمهارة ذي الخيال الخصب المتولد من متابعة حية للأحداث ومجريات الأمور في بلد تخنقه الحرب وأدواتها وبمخالب تجارها وأسباب اتقادها وديمومتها لينقل من قاع الجحيم في عوالم المعتقلات صورا لنفوس تفيض بالألم وفي كل لحظة تودع الأمل بزفرة من الحسرة والندم ..

أُعِدُ هذه السطور دعوة لقراءة (الظل المنسي) ليكون التعبير عنه من شاهد حال عاش ما هو إلى الحقية أقرب من الخيال.

في الظل المنسي ستجد المرآة صقيلة لروح وخيال حميد الرقيمي عاطفته ووعيه وآلامه وآماله ،وفيه ستجد نفسك

تحصي ما يصعب عليك حصره ولا تطيق تحمله من صور جور الظلم وجبروت السجن والسجان ..

حميد الرقيمي توج نجاحاته في هذه المرحلة بتخرجه من الجامعة وما أخاله الا سينطلق لما بعدها على الصعيدين معا..

الذين اعتبرهم أبنائي كثر وبالآلاف وانت درة ثمين في عقدهم يا حميد .

أجمل التهاني والتبريكات بكل ذلك.

أصبحت بعضا من ذاكرة شعب ومن حقك علينا أن نذكرك .

عن كتاب (حنين مبعثر) للكاتب اليمني الشاب/ حميد الرقيمي

فؤاد مسعد - أديب وصحفي وباحث يمني

صدر للكاتب اليمني الشاب حميد الرقيمي كتاب "حنين مبعثر"، عن دار عناوين بوكس للنشر، وتضمن ٣٨ نص، حمل كل نص عنوانا مستقلا، لكن ثمة قاسم مشترك يجمعها ويظهر بين سطورها وكلماتها، إنه الحنين إلى الأم التي تحضر في كل نص، وهي المخاطبة في جميع الرسائل/ النصوص، والحنين إلى الوطن.

يتحدث الكاتب والإعلامي في كتابه عن واقع بلده اليمن في ظل الحرب التي تدخل عامها السابع، يكتب عنها من موقعه كشاهد على أحداثها وهو الذي عايشها عن قرب، نحو أربع سنوات قبل أن يغادر إلى الخارج، وحين يأتي للحديث عن تداعيات الحرب وضحاياها من قتلى وجرحى ومهجرين ومشردين فهو لم يكن بعيدا عنها وعنهم.

في الكتاب الذي يتألف من ١١٦ صفحة يبث الكاتب حنينه للأم بمعناها الخاص، والأم/الوطن، ويبوح بما يختلج في وجدانه من مشاعر الشوق بعد سنوات من الحرب والتشرد والخوف والمعاناة، وهو حين يكتب قصته ويسرد يومياته، يكتب قصة بلاده الحزينة بلغة صاغها الأدب، ويرسم واقعها بريشته التي أبدعت ٣٨ لوحة تشكيلية، موشاة بصدق التعبير وروعة السرد وشعرية اللغة.

من صباحات الريف الصافية وبدايات الطفولة الأولى تنساب كلمات الحنين عبيرا عابرا فوق المكان وعبر الزمن، منسوجة بحرير أحلام طفل لم يعش طفولته إلا لماما. ولم يقض في قريته من الوقت سوى النزر اليسير، إذ نشأ في المدينة وعاش فيها بينما روحه ظلت عالقة هناك في فضاء القرية.

وقدر للطموح الذي لازم الكاتب منذ صغره أن ينتزعه سريعا من بين أقرانه ومن أحضان الطفولة وألعابها، ليستقر في مجلس والده، منصتا لأحاديث الكبار وقضاياهم ومشاكلهم، ولم يكن والده، يحول بينه وبين ما يهوى، وهو الشاعر المسكون بقضايا مجتمعه وأمته، بل كان يرى في صغيره مبدعا مميزا، جديرا بمجالس الكبار، وكان يقدمه لأصدقائه قائلا: هذا الدكتور حميد، هذا (الإرياني)، حتى صاروا ينادونه بالإرياني، (إشارة إلى الدكتور عبدالكريم الإرياني، أحد أبرز السياسيين في اليمن، ترأس عدة حكومات في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وعرف بحنكته السياسية وخبراته الإدارية والاقتصادية، وتولى منصب المستشار السياسي لرئيس الجمهورية حتى وفاته في العام ٢٠١٥).

حميد ابن الخامسة والعشرين عاما، يكتب مثل خمسيني، محملا بهموم جيله والأجيال القادمة، عن أوجاع اليمن الممتدة بين الماضي والحاضر والمستقبل، وعن ذلك يقول: "قدري وهذا الجيل الذي كتب عليه مواجهة الموت بالموت، على جبال

المعارك المشتعلة، وفي ضياع الصحارى الواسعة، على ضفاف البحار التي تلتهم الغرباء بدون رحمة، وهذه المنافي التي لا تطيق خطواتنا عليها".

إن هذا الجيل، جيل حميد، يدفع ثمن غفلة الأجيال التي نامت في العسل، وهربت من الواقع، كما يقول الناقد اليمني الدكتور فيصل علي، معلقا على كتاب حميد الذي يرى أنه اختزل الأسى والتيه والخوف والهجرة والتشرد ومفردات حزينة كثيرة، اختزلها في كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين على الوجدان: حنين، مبعثر.

لكنه حين يتحدث عن الألم يستدعي الأمل، وحين يكتب عن الأسى والمأساة يرفض الوقوع في دائرة اليأس، "فلا يزال هناك متسع يستحق الحياة، يستحق البقاء، يستحق الكفاح والنضال الطويل".

قراءة في كتاب ((حنين مبعثر))
للكاتب حميد الرقيمي

آزال الصباري - شاعرة يمنية

كتاب سردي شيق وشجي للكاتب حميد الرقيمي سار فيه على نهج الرسائل، وكانت أمه هي المعنية بقراءة تلك الرسائل.

غلاف الكتاب صورة من الحنين، لنقل هي الحنين بكل تفاصيله، أم تحضن ابنها، جدار على شكل ذكريات رُصفت بعضها فوق بعض ، ولو لم يضع الكاتب عنوانا لمؤلَّفه هذا لكان الغلاف عنوانا كافيا ووافيا، ولو تعمقنا أكثر لوجدنا أكثر من الحنين في تلك الصورة التي تعبر بوضوح عن جدران اليمن وما وراء تلك الجدران من حكايات كبرت بضحكاتها وأحلامها بندوبها، وانتكاساتها.

بين دفتي الكتاب مائة وثلاثون صفحة من الحنين يتصاعد من حنايا الشوق إلى سماوات هي الأقرب للكاتب رغم وحشة المسافات، كانت أم حميد هي السماوات، وكان حميد هو الورق والحبر والكلمات و، كتب حميد كل رسائله دون أن يذهب يوما إلى صندوق البريد ليستلم ردا من أمه، لم يكن حميد يملك صندوق بريد، ولم يرسل طردا واحدا من رسائله إلى أمه، أمه غائبة بعيدة كوطنه، لكن وفي حقيقة الأمر كانت روحها تتنقل بين السطور، ترافق تنقلات حميد، يكاد القارئ يسنج ملامحها من أسفار ابنها التي

لا تتوقف، وذكرياته التي لا تنطفئ أشواقها، من حنينٍ لا يغمض عينيه أبدا..

سرد حميد حنينه في رسائل عددها أربع وعشرون رسالة لكل منها عنوان مختلف، كانت العناوين بوابات واضحة، وعتبات مشوقة لما بعدها، تستطيع أن تنطلق منها لتسبر أغوار النص دون الحاجة للتأويل أو التفسير، يتناسب ذلك الوضوح مع الطريقة السردية التي سلكها الكاتب، ففي حنين مبعثرة لسنا في صدد قراءة شفرات لقصص قصيرة تحتمل التأويل، أو رواية مكتملة الإركان تتضمن فلسفة أكبر من أركانها جميعها، بل نحن أمام عناوين لرسائل تتحدث عن لحظات من واقع حياة كاتبها، ومن تلك العناوين تفوح رائحة ذكريات الوطن وتتصاعد آهات المنفى، وهذه نماذج منها (إليك فقط_ ملامح وطن _ منفى آخر _ بقايا وطن _ كعك العيد _ الوطن أغلى...).

أما اللغة فقد كانت مزيجا البساطة والقوة، دقيقة الفكرة وعميقة المضمون، طافحة بالحنين للوطن مضمخة بالشوق لذكرياته فيه.

تقترب لغة حميد من كل إنسان مهاجر على وجه العموم ويمني على وجه الخصوص، فتأخذك الكلمات بعيدا.. لتشعر بالمنفى، تسكنه مع حميد، تشتاق للوطن، وإن كنت في ربوعه، لغة حميد الغاضبة من السياسية والسياسيين، هي لغة رجل مثخن بجراح الحرب وأوجاع الوطن، ستجد نفسك—

وأنت تقرأ — تتنقل مع حميد من مدينة إلى الثانية، تشاهده يحمل هموم وطنه فوق كتفيه أكتافه، يأبى أن يلقي بها ولو لثوانٍ معدودات ، وتتمنى لو تبدد عنه أحزانه التي تخطف منه كل أضواء المدن وأصواتها ، يشعرك حميد بأن هناك لصوصا تسرق كل الأشياء الجميلة التي تصافح طريقه، وتجده يدلي بأسماء اللصوص بين الرسائل، فالحرب لص، والسياسي لص، والحزب لص، والجهل لص والتعصب لص، والجشع لص، والغربة لص...وهكذا

يسرد حميد ذكرياته المطوية بين حناياه ، وأحلامه المنسية، وتفاصيل أيامه المنفية، بلغة ، شجية، عذبة، تشتم منها كفاح اليمني وإصراره، فتجد كل اليمن بين سطور حميد، خيبات الرجال، وخوف الأطفال وقلق الأمهات، ومن بين السطور يوشك القارئ ان يمسك بأصابع قلبه الأنفاس المتعبة، والتناهيد التي احترق بها الكاتب وتبعثر إثرها حنينا على ورق.

يقول حميد بعد حديثه عن أوجاع تعز، وأرق صنعاء، وشرود إب « ماذا أكتب... وكل المدن غارقة في عمق الظلام منكسرة مكسورة؟ لا بلادي عادت، ولا أنا عدت...»

ثم يقول « منسيٌّ في إبط المنفى، أفتش عن بقايا حياة، لم تكن بقاياها الأولى من نصيبي، مسكونا بوطنٍ لم أكبر فيه إلا مشوها بالندوب.....»

في حنين مبعثر تجد الكاتب هنا وهناك يتنقل بنا بين وفاء الأصدقاء ودهشة الغرباء بين ذكرياته وأمنياته، بين ضياع الوطن وشتات الغربة، تتنهد الأرض من بين سطوره، ويكبر الوطن فوق كل الاحتمالات والهواجس، يحدث أمه بكل ذلك أولا بأول يبدأ رسائله باسمها ويختمها به، الأم التي يحاكيها حميد هي أم كل من التقفته أفواه المنافي، هكذا يسري فيك هذا الشعور وأنت تقرأ حميد المتعلق بصوت أمه المتهدج بخوف الأم وحنانها وحنينها، يناجي حميد أمه في إحدى رسائله:« أعود إلى نفسي آلاف المرات فلا أجدها إلا ممتلئة بحبك، أتجول في تفاصيل الأزقة ولا أجدُ...افترش المنافي واحدا تلو الآخر ولا أجدني إلا فيك....»

ويقول في حنين آخر « إلا أنتِ أتيتك لأني لم أجد دفئا في المنافي البعيدة المفرغة من رائحة الحياة، تلك النسمات التي عهدناها على تلال فصولنا، وبقيت أنا.. أنا الذي لم يبقَ منه إلا أنتِ، تقبليني كي لا تنطفئ بقاياك، بقايا طفلك الموجوع»

سيتمر حميد في الكتابة وسيتمر الحنين، لكن أتوقع أن نقرأ لحميد عملا سرديا آخرا بأسلوب مختلف، وبسحر أجمل، ما قرأته لحميد في حنين مبعثرة يبشر بقدوم كاتب من طراز رفيع، يفخر به الحرف والقلم.

نبيل البكيري- صحفي وباحث يمني.

حميد الرقيمي هذا الشاب الحالم الجميل القادم من قلب الريف اليمني مفتتحا مشواره الأدبي بكتابه البكر وأي بكر ذلك الذي يبتدأ مشواره بكتاب عن الأم العظيمة رمزا للعطاء والحنان والوفاء والفداء والتضحية .

الأم هي أعظم شيء في هذا الوجود البشري كمصدر دافق بالحياة وتدفقها الدائم العذب الذي لا ينضب .

يحاول حميد ممثلا هنا لنا جميعا أن يرد بعض جميل أمهاتنا العظيمات بهذه السردية الأدبية الباذخة الجمال و التي بقدر ما تنبئ عن أديب سيال الأفكار والمعاني بقدر ما تنبئ عن إنسان رقيق المشاعر مفعما بالوفاء والنبل .

حميد يتفتق أدبًا روائيا يتشكل كل يوم بهوسه الكبير في قراءته للأدب وتمثلاته الإنسانية الراقية ، والذي يجعلني موقنا بمستقبل أدبي كبير وواعد لحميد هذا الإنسان الجميل والحميمي ودافئ المشاعر والأفكار .

بالتوفيق يا حميد يا صديقي وأبارك لك هذا المولود الأجمل متمنيا لك مزيدا من الإبداع والتجلي .

حنينُ حميدٍ المبعثر.. حنيننا جميعًا

عبدالله شروح - روائي يمني

قليلون هم الكتّاب الذين يتمكّنون من صوغ تجربتهم الشخصية بطريقة تظهرها وكأنها تجربة الجميع. هذه الكتابة التي بمقدورها القبض على الجوهري والدائم هي ما نسميه فنًّا.

كنت فرحت بإعلان الصديق العزيز حميد الرقيمي عن كتابه "حنين مبعثر"، وكان باعث فرحي هو اعتقادي بأن مهمة الكتابة في مرحلتنا الساحقة هذه لا تقل أهمية وقداسة عن النضال بأقصى صوره احتدامًا، ففي النهاية كل ما يحدث حتمًا سيمرّ، وما لم يقيّد بالكتابة وبطرق التوثيق الأخرى فإنه آيل لا شك إلى النسيان.

على أن سعادتي مضت تتضاعف كلما التهمت سطرًا من هذا الكتاب البديع. وجدت نفسي فيه بأغلب التفاصيل.

كم كان حميد موفقًا إذ اختار لكتابه طريقة التأليف تلك بأن جعله رسائل إلى أمّه. الحميمية التي اقتضتها طريقة التأليف هذه وحدها تنسجم والكتابة عن الوطن، الأمّ الجامعة العظيمة.

نحو ثمان وثلاثين رسالة خطّها حميد إلى أمّه، في كلّ واحدة منها ترى جرحًا نازفًا، دمعة عالقة، تنهيدة محبوسة، وإنّما أيضًا بلسمًا يظل يفصح عن نفسه كلما أوغل السرد في

منطقة البكائيات، بلسمًا يسوقه الكاتب من اعتزازه بهويته وافتخاره بتاريخه.

في صفحات الكتاب المئة وقفت مع الكاتب تلك الوقفات المذلة أمام شباك التذاكر في المطارات، تشردت معه في الشوارع والأزقة التي لا تعرفني وبالكاد تكترث لي، ذقت البرد القارس الذي لم يغنِني عنه المعطف الثخين، تعرفت العديد من المنفيين مثلي واجترعت معهم كؤوس ذكرياتنا المريرة، أنشبت الظُلمة براثن وحشتها في صدري وجعلتني أتلوّى على الأسرّة المتناثرة في بلاد الله كل ليلة، أفتّش عنّي، عن بلادي وعن عودة سريعة لائقة.

كم أنني مدين لحميد أن كتب كتابًا جيدًا كهذا، ولا أظن قارئًا ما لن ينتهي بهذا النوع من الامتنان. بالطبع لم يمكنني التنويه هنا إلا إلى الجزء اليسير من لآلئ هذا الكتاب الجميل، ولم أكتب هذا على سبيل النقد بقدر ما على سبيل التعريف والاحتفاء المستحق.

هويدا سالم - كاتبة ليبية

أستاذ حميد لا أخفيك أحيانًا عندما اقرأ أحد منشوراتك أشعر وكأنك تكتب عني لذلك كتابك حنين مبعثر ما أن قرأت العنوان أحسست بأن شيئًا ما جذبني إليه ولا أدري ما هو متأكدة بأني سأجد فيه نفسي كثيرًا.

لست فضولية ولكن اليوم منذ استيقاظي وأنا يدور في ذهني شيء واحد وهو قراءة ولو صفحات من ذاك الحنين كان فضولا كبيرًا قلت في نفسي كنت متلهفة كي أحصل على نسخة منه كيف الآن وهو بين يدي أقوم بتأجيل قراءته فهذا لا يجوز في حقه، كعادتي أعددت فنجان قهوتي أحتسيه صحبتي وقررت أن تشاركني بعض من أسطر الحنين جلستي قرأت بعضا منه بشكل عشوائي رغم أنها ليست طريقتي فالقراءة ولكن ارضاء لفضولي؛ فأنا أريد أن أتفرغ لقراءته دون أن يشغلني عنه أي شيء.

لا أدري ما أقول ضاع الكلام مني وتلعثم لساني لما وجدت في تلك الصفحات كانت اللغة الوحيدة للتعبير لغة الدموع كانت تنهمر بغزارة وبحرقة كبيرة لم أجد لغة غيرها للتعبير .. ألم أقل لك أشعر بأني أعيش الحنين قبل أن أقرأه هذه أسطر وفعلت بي ما فعلت كيف سأكون حال انتهائي من قراءته ؟

نياط قلبي تكاد تتقطع على حال شباب بلادي وشباب كل بلد عربي يعيش حربًا لعينة يدفعون ثمنها ثمنًا باهظًا لا دخل

لهم بها حربا صنعها من تنكروا لأوطانهِم ووضعوا أيديهم بيد أعدائه فقوارب الموت كل يوم تزف العديد من الشباب عبر قوارب الهجرة غير الشرعية فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر كأن التغريبة كتبت عليهم منذ الأزل بدءًا من التغريبة الفلسطينية والتغريبة العراقية والليبية واليمنية والسورية وغيرها ولا ندري الدور القادم على من ؟

قررت أن أكمل يومي صحبة الحنين أكملت قراءته أخذني ذاك الحنين من كل شيء أخذني وأنا مع طالباتي كنت معهم جسدا فقط أخذني وأنا أقود سيارتي ولم أعرف أين وجهتي أسير في الطرقات كأني غريبة عنها آاااااااه مثقلة بالكلام حوله ولا أعرف من أين أبدأ..!

تساؤلات وأمنيات ورغبات ولكن قاموسي يفتقر لكلمات تليق بمستواه فأنّى لمثلي أن تكتب عن ذاك الحنين.

بعد ما انهيت القراءة قلت في نفسي وهو في العشرينات من عمره قدّم هذا الإنجاز فكيف إن وصل إلى مرحلة من العمر أكبر من ذلك ماذا عساه سيقدّم فدعوت الله أن يهبك العمر الطويل لأقرأ لك وأنت تكتب على قمم جبال اليمن السعيد ، اليمن التي دائمًا نظرتي لها رائعة أحب نضال أهلها ورغبتهم في الحياة رغم كل الصعاب ، وقد ازداد حبي لها أكثر وأكثر بعد هذا الحنين.

كان لي أصدقاء ممن تعرضت بلدانهم للحرب والدمار كالعراق وسوريا منهم من كان يقيم هنا في ليبيا كنت

أجلس معهم وأشاركهم ذلك الوجع خصوصا في حرب العراق كنت معهم في قلب حواراتهم عن الوطن وجرح الوطن مازلت أذكر كل تفاصيلهم عن العشق والولاء والانتماء لوطنهم ولكن أقولها بكل صراحة حجم عشقك وانتماءك وطريقة سردك له في ذاك الحنين لم أرى له مثيل وقل أن أجد له نظير لذا كل من يقرأه يتأثر به ويتعلق به جدا جدا الأمر الذي يجعله سريع النفاد داخل المكتبات كنت مبدعًا فيه بكل الكلمة وستكون أكثر إبداعًا في أعمال أخرى.

أهنيك عليه من كل قلبي قد يقول قائلا ما وهو يقرأ العنوان حنين مبعثر كلمتان خفيف نطقهما على اللسان ولكن ثقلهما ووزنهما بثقل جبال الأرض على الوجدان.

دمت مبدعا متألقا بحروفك وكلماتك ولن أزيد على ما قاله البطل أيلول أريدك أن تبقى يمنيًا حقيقيًا للأبد وستظل هذه الجملة وصيتي لك دائمًا .

وكم أرجو من الله أن يحفظ شباب هذه الأمة ليعيد لها مجدها فهي أمة تمرض نعم ولكنها لا تموت وسيبقى اليمن السعيد سعيدا مهما تكالب عليه الأعداء بهمة أهله وأبنائه الخيرين الطيبين سيعيدون له مجده لذا كن دائما واثقًا وعلى يقين من ذلك ستعود إليه يومًا ما مرفوع الرأس دائما أحسن الظن بربك هو القادر على كل شيء فأمره بين الكاف والنون كن فيكون.

راغدة خوري- ناقدة وأديبة ومترجمة سورية

انتهيت من رواية "حنين مبعثر" للكاتب "حميد الرقيمي"وفكرت ماذا سأكتب عنها. يكفي أن تعرف بأنها تتحدث عن اليمن (غير السعيد) حتى تتخيل أحداثها. ولكن من يقرأها سيتوقف عند الكثير من المفاصل المؤلمة خاصة أن الرواية في كل فصولها موجهة " إلى أمي" وهذه وحدها تجعل القلب يضعف أمام تفاصيلها. لم يأخذنا الكاتب إلى ساحات المعركة التي نسمع عنها ونراها عبر وسائل الإعلام، بل تحدث عن انتهاك هذه الحرب للنفوس وتدميرها حتى عند الأطفال. يتحدث عن الهجرة بشكل مؤلم ومبتكر يقول: " يا الله لا تجعلني أخجل من يمنيتي" فهل هناك أصعب من شخص يخجل من جنسيته التي هي جذوره.، والتي ترفضه حتى المنافي " هو القادم من الفوهة البركانية، وتكشر في وجهه كلما هبط عليها بحقائب مليئة بالحنين". وكالعادة في مثل هذه الظروف يعود دومًا الإنسان إلى مرحلة الطفولة السعيدة قبل الحرب" فردوسه الأبيض" حتى الطفولة ضاعت في معترك هذا الجنون. عند ولادته وأمام جثة والده تقول له والدته" الجحيم بانتظارك يا ولدي" وعندما حلم بكابوس بأنه يحارب ويسأله أحدهم ماذا تفعل أيها الجبان؟ يجيبه: " أتيت أبحث عن اليمن، هل توجد اليمن؟"رواية قاسية بأحداثها ولكنها شيقة بطريقة السرد وخاصة عندما ينهي الكتاب

بخشيته أن ترحل والدته قبل أن يدّون على أول صفحة فيه الإهداء لها. رواية تتحدث لا عن اليمن فقط، بل عن الكثير من دول مشابهة عاشت الحرب وأخرى لم تزل مأزومة.

تسبيحة في محراب الحنين

همدان الحقب- كاتب يمني

أقلب طرفي وأمرغ قلبي هذه الأيام بين روايتين جميلتين يطيب بين حنايا سطورهن الخاطر وينشرح القلب, واحدة منهن (حنين مبعثر) للكاتب المتميز حميد الرقيمي الذي شغفني بمطر حنينه المشجون الأخاذ المتساقط من كل صفحة بل وسطر وجملة...

فعلا لقد شغفتني يا صديقي العزيز بهذا السرد السلسال والحبكة المتناغمة التي عكست مقدرة عالية في الكتابة الادبية المتميزة والمستوفية لكل عناصر الإدهاش وعبق الإثارة, كانت الرواية تعج بالتشويق وكنت لجمالها معك أحن في كل كلمة وتحن معنا اليمن قاطبة, كانت روايتك يا صاحبي مجرة من عيون دامعة وغماما قطرها قلوبا نازفة حسرات على حطام بلد تناهشه الأوغاد وأمعن الأقزام سفح دمه...

لبنانك الذي حاك كل هذا السحر الأخاذ يا حميد سيل من قُبَل بيضاء كبياض قلبك ولاهبة كاتقاد عاطفتك الثائرة من مكامن الجمال وغدران حب الوطن, ولأمك دخداخ سمفونية حنينك يشنف مسمعيها ويبلبل قلبها الرؤوم, لها من شغاف قلبي أفواج من فراش أزرق يحج إلى بيتها ويطبع على جبينها قبلة حنين قلبك وقلبي وحنين قلب اليمن المصدوع ...

لقد أدهشتني يا صاحبي وأنا أرى في حروفك بلادا تحن وشعبا يئن, ولكم بلغ إعجابي ذروته وأنا أصعد مع كل تنهيدة إلى ذروة على سفح شاهق من بيان يروي اليباب ويزهر الصخر الأصم, وما ان اعتقد أني أقف أخيرا على ذروة الحنين عند هذه الفكرة او تلك أجدني مع كل صفحة جديدة محمولا وطائرا بأجنحة من تناهيد فكرة أزها وأبها إلى ذروة أعلى ونائف أشهق...

كيف لقلبي المنثور كعقد منفرط أن يلملم حنينك المبعثر يا صاحبي, كيف نجمع بلادا تناثرت إلى ما دون الجسم والجُسيم, وهل ثمة مقدرة على أن تمسك خيوط ضوءٍ هائم أزلي السفر؟!!, إني وحنينك المبعثر نغم منثور حائر في مهب الأنين ودرب عواصف الشجن يا عاصفة الحنين.

رياض الفرح - باحث يمني

تبقى الغربة صعبة مهما كانت مستوره الرفاهية فلا شيء يوازي الوطن الحقيقي لكل إنسان فالوطن ليس فقط مكان بل روح وأهل وأصدقاء وتاريخ ويرتبط الحنين ارتباطًا وثيقًا بالغربة فعندما يبتعد الإنسان عن مكان ما يشعر بالحنين إليه ويشتاق لكل ما فيه ،

وللغربه أوجاع لا يعرفها إلا من عاشها وها هو الإعلامي المتفرد حميد الرقيمي يعيش تجربة وجدانية جادت بها قريحته الأدبية لينقل لنا صوره تعبيرية للحنين في رائعته (حنين مبعثر) من خلال أسلوب الرسائل الموجهة إلى أمه والتي تختزل في

ثناياها معاناة الوطن و متلازمه الام والوطن هي الأكثر وضوحًا وأهمية في الحياة.

في كل رسالة من رسائل حميد تجد نفسك في قلب الحدث وكأنه يكتب ليجمع شتات أحلامنا وطموحاتنا المبعثرة هنا و هناك ينقلك في اكثر من محطه من محطاته في مطارات ومدن الاغتراب من القاهرة إلى إسطنبول إلى الخرطوم التي استأنس أهله وروحهم الطيبة ، ستشعر برغبه في البكاء وانت تعيش بعض التفاصيل الإنسانية وتشعر بالحنين إلى الطفولة والريف وتشعر بالفخر في إحساس حميد باعتزازه بتاريخ بلده الذي يحمله على المقاومة و الصمود في وجه المتغيرات التي طرأت على حياتنا وكأننا نعيش خارج إطار الزمن.

شكرًا حميد الرقيمي على كل حرف كتبته و دمت بود.

عبد الرحمن جابر .. صحفي يمني

وهو يختار عنوان أول أعماله الأدبية، يفصح حميد الرقيمي عن روح ذكية، وعاطفة نزيهة، وخيال جريء، والأمر ليس بغريب، فقد ظل ابن المدينة اللغز يقدم إجابات متقدمة لكل خطواتنا المرتبكة بالانطلاق إلى الأمام، إنه مدهش كصدفة سعيدة، وأصيل كصباح ريفي

أسس لوجوده الأدبي بطريقة بارعة لا تخلو من المجازفة، وفي المركز من قلب الوجود، حيث تقع الأم، يستهل الرقيمي باكورة أعماله، وذلك تحد كبير ولكنه ليس صعبا أمام كاتب رفيع يملك حسا روائيا خلاقا لا يجعلك عرضة للهزيمة أو الخيبة وأنت في حضرته.

يخضع حميد عنفوان اللغة الجامحة، وفي كل ظروفه الشعورية المتباينة والمتعاضدة تجده يطوعها ويأمرها من أعلى وكأنها أحد أتباعه المخلصين، وهو اليوم يقف قبالة فكرة لامعة كالبرق، ومهيبة كالشهادة، وإذا أردنا أن نجمع بين كل الصور البليغة، سنقول فكرة كروح الأم، نبع غني يتدفق، كما أنه لا يشيخ، الأمومة، تلك المعزوفة الموسيقية الأرق والأعذب، والعاطفة الإنسانية الأنبل والأجدر بكل انشغالات الكتاب والأدباء.

منذ زمن وأنا أنتظر هذه التلويحة، باكورة أعماله، الطفل البكر خلال تجارب عشق كثيرة، خاض فيها مواجهات

ملحمية وأسطورية بشجاعة وإقدام، وفي أدراج الكلمة والمعرفة، كما في معارك النضال والحرية .

سأتوقف عن تناول وجبات قراءة وظيفية أضحت بلا روح ولا رائحة، أُفضل الانتظار حتى أحتفل على أطباق مائدتك العامرة بما نشتهيه ولم نعد نصل إليه، سأعيد إحياء شراهتي المدفونة، تلك التي أطفأتها أمام كثير من المؤلفات المسلوقة والزائفة، دعني أثق أنك قد أعددت لنا طبقا أدبيا شهيا، سنأكل أصابع قلوبنا بعده، ومنذ هذه اللحظة، سأحرص أن يتطاول الشغف بما تنتظره أعيننا الزائغة، لنسافر لاهثين داخل ثنايا خيالك المتحفز والخصب دائما، بحثا عن المعنى الذي أضعناه بين أكوام توافه باتت تستهلكنا كل يوم، لا شك أنني سأرتحل خلال جواهر أدبية تطفح بالمعنى والقيمة وتزدان بالجمال والأصالة.

إنها الوليمة التي انتظرنا وعدك بها طويلا، ولقد بدأنا نشتم رائحة الشواء الزكي من الاحتراق النبيل الذي تضطرم روحك فيه، إنك تصعد كالشمس من ديجور كل ما حولك يا حميد، سأصوم وأنضج لهفتي على نار غير هادئة، على شمعة تكاد تذوي من فرط اللهفة والاحتراق

لا تجعلنا نجوع أكثر، حتى لو رفعت عنا الحرج، وتركت لنا أن نفطر قبل موعد الأذان.

لقد نفخت في الصور، ونحن على الوعد، في الانتظار، لا يمكن أن يبقى أمامك إلا أن تنفخ مرة ثانية لتعيد صناعة الكلمة من جديد.

الفهرس

الإهداء ٣
إليكِ فقط ٥
ملامح وطن ٧
منفى آخر..... ١٠
ندوب ونصف حياة ١٣
طفلك الكبير..... ١٥
أطياف تشبهنا ١٧
رائحة خوف ٢٠
سوماني ٢٣
صباحات القرية ٢٩
ملامحي هناك ٣٢
شروق وطن ٣٥
كوخ قابل للترميم ٣٨
حياة مسروقة ٤٠
لن أخون أبي ٤١
أنا .. أنتِ ٤٣
بوصلة دون اتجاهات ٤٤
أبي .. لا أكثر..... ٤٧

هل تراها مثلي ٤٩
شظايا على الطريق ٥٢
تجاعيد طفل ٥٥
لا أزال واقفًا ٥٧
الوطن أغلى..... ٥٩
سأعود قبل أن أنسى..... ٦١
نهاية قبل البدء..... ٦٢
نظرة أخيرة ٦٥
كعك العيد ٦٧
مائدة دافئة بالضحك..... ٧٠
الجحيم ينتظرك ٧٢
بقايا..... ٧٦
كابوس ٧٧
بقايا حياة ٨٠
عذابات ٨٢
ماذا لو..... ٨٤
حكايات ٨٦
صباحات تائهة ٨٩
تغريبة اليمني ٩١
صديقي أيلول..... ٩٤

قالوا عن الكاتب والكتاب ١٠١

- الغربي عمران: قاص وناقد يمني ١٠٢

- إبراهيم موسى النحَّاس: شاعر وناقد أدبي مصري..... ١٠٧

- باسمة العوَّام: شاعرة وناقدة سورية ١١٢

- صلاح محمد حسن القويضي: السودان ١١٩

- الحسن محمد سعيد: أديب وناقد سوداني ١٢٤

- د. فيصل علي: ناقد يمني ١٢٦

- فوزي الحقب: كاتب يمني ١٣٠

- زياد مبارك: ناقد سوداني ١٣٢

- علي صالح أحمد: إعلامي يمني ١٣٦

- فؤاد مسعد: أديب وصحفي وباحث يمني ١٣٩

- أزال الصباري: شاعرة يمنية ١٤٢

- نبيل البكيري: صحفي وباحث يمني ١٤٦

- عبد الله شروح: روائي يمني ١٤٧

- هويدا سالم: كاتبة ليبية ١٤٩

- راغدة خوري: أديبة وناقدة ومترجمة سورية ١٥٢

- همدان الحقب: كاتب يمني ١٥٤

- عبد الرحمن جابر: صحفي يمني..... ١٥٧